

Princeton University Library



32101 085676862

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

المرأة في عصر الديمقراطية

بحث حر في تأييد حقوق المرأة

بقلم

إسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف



المرأة في عصر الديمقراطية

بحث حر في تأييد حقوق المرأة

بقلم

إسماعيل منظر

رئيس تحرير المقتطف

(RECAP)

~~(Appendix A)~~

HQ1784

.M393

1949



القسم الأول

تطور مشكلة المرأة في العالم الغربي

1509

9700046221 R1979129
bttbtb

الفصل الأول

المرأة قديما وحديثا - المرأة وخطى التطور الاجتماعى -
المرأة وأثرها فى بناء المدنية - غريزة الرجل للحاضر ، وغريزة
المرأة للمستقبل - المرأة فى المدن القديمة - اليونان والرومان -
العصور الوسطى - حقوق المرأة حديث جديد - روسو -
المرأة ملهأة الرجل - الدعوة الى الحرية وأنها حق طبيعى
مناقض للقول بحرمان المرأة من حقوقها السياسية - خطأ
القول بأن الحرية حق طبيعى للرجل دون المرأة - ماري
وولستونكرافت - المرأة شريكة الرجل عقليا وسياسيا -
شارلز فوكس - جرمى بنتام - بايلى - قانون الاصلاح
الانجليزى سنة ١٨٣٢ - المرأة من الطبقة العليا أجدر بالحق
السياسى من رجل الطبقة الدنيا فى الجمعية .

- ١ -

المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة فى بناء المدنية
الحديثة . ولم تكن المرأة فى العصور القديمة أقل أثرا منها فى
العصور المتأخرة . فالقبائل البدائية ، وبخاصة تلك التى اتخذت
عادات البدو فى الارتحال من مكان الى مكان ، والجماعات التى
عاشت بالصيد ، والعشائر التى اتخذت من سلاحها وعضلاتها
وسيلة للعيش والحياة والضرب فى مناكب الأرض ، كل
هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم .

شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور فى العمل ،

وأخذت بضلع فى كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة ، وكانت من العوامل الأولية فى انتشار جماعات الانسان فى بقاع من الأرض ، لولا فضلها فى العمل ، وتديرها شئون الأسرة ، لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها أو يكشف عنها . وكانت للرجل ولاشك سلاحا من أمضى أسلحته ، ودرعا من أقوى دروعه ، وحافزا من أولى حوافزه ، وكفاها أن تكون أول من أنشأ فلاحا الأرض ، وأول من اكتشف كيف تنبت الحبة فتثمر فى أزمان دورية . فكان هذا بداية الحضارة الزراعية فى العالم القديم ، وأساسها الأول فى العالم الحديث . ولا ريبه فى أن اكتشاف النار ، ووضع أصول الزراعة ، سببان لولاهما لما نشأت المدينات التى استقرت ، أول ما استقرت ، على شواطئ الأنهار العظمى .

قال ولز يصف حال الجماعات الأولى :

« على أن أكثر العمل المضى الذى كانت تحتاج اليه الجماعات كان من نصيب النساء . فان الرجل البدائى لم يكن يفهم للشهامة ولا للنخوة أو النجدة معنى . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شئ الا أسلحتهم ، وهم على استعداد لدفع الطوارئ ، ولاشك فى أن العناية بالأطفال أيضا كانت من نصيب النساء » .

ثم قال : « كانت هذه الحال سببا في أن يذهب البعض الى القول بأن النساء كن أول من بدأ في فلاح الأرض . وهذا المذهب لا تنقصه المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الأكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لأن الرجال كانوا يخرجون دائما في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد أن يكون النساء هن اللائى لاحظن أن الحبوب تنمو في الأمكنة التى كانت من قبل مخيمات الجماعات أخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الأرض قربانا لآله من الآلهة عسى أن يعوض عليهم ما بذروا أضعافا تعد بالملئات . وعلى هذا لا نشك في أن أول طور من الأطوار التى تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذره الغير . فان الجماعات التى كانت لا تزال في طور « الرعاوة » يرجح أن يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الأول » .

ولقد تابعت المرأة خطى التطور الذى لازم الرجل في جهاده الشاق نحو الكمال والمدنية . فاذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلى والعقلى في بناء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع ، والكشف عن أسرار المجهولات ، فقد ضحت المرأة بجهدها نفسى ، وأسرفت في الاتفاق من روحها ومواطنها وانفعالاتها ، ما قد يتضاءل أمامه

ما أنفق الرجل من جهد العمل والانتاج . وإذا كان التاريخ على ما يقول « هيني » : ليس سوى الأطنمار الخلقة التي خلفها الروح الانساني على مر العصور ، فان في ثنايا تلك الأطنمار من روح المرأة قدرا يساوي ما فيها من روح الرجل ، ان لم يكن أكثر ، اذا لم نخش المبالغة .

ولقد عانت المرأة من عنف الرجل طوال أحقاب لا يحصيها العد ، ما لو استطعنا أن نقدره ، لفاق جهدها في ذلك وحده ، كل ما تقدر للرجل من جهد العمل على اقامة دعائم المدنية والحضارة . فلو لم تخصصها الطبيعة بتلك الخواص النفسية الفذة ، وذلك الادراك العميق لمختلف نزعات الرجل ، وتلك القدرة العجيبة على اختيار مواقف الكر حيث يجدى ، والفر حيث يفيد ، والاقدام حيث يكون الاقدام نصرا ، والدفاع حيث يكون الاقدام هزيمة ، مدفوعة الى ذلك بغريزة فيها تدفعها الى حفظ ذلك النوع الذي يطلق عليه الاحيائيون اسم « الانسان العاقل »^(١) اصطلاحا ، لظل ذلك الكائن البدائي في جحوره المظلمة ، وكهوفه المرطوبة ، وغاباته الموحشة ، حيوانا لا يفرقه عن بقية الحيوان غير انتصاب القامة .

ذلك بأن الطبيعة قد وجهت غريزة الرجل الى العمل للحاضر وحده ، ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل .

Homo sapiens (١)

تحمل وتلد وترضع وتربى وتعلم ، وتحارب نزوات الرجل بالضعف اذا صلح ، وبالقوة اذا حزب الأمر ، موجهة كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئين : الأسرة والولد . الأسرة للحاضر ، والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنم ولا ربح . ومن ثم كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية .

— ٢ —

لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعى فى العصر المصرى القديم شيئا يتيح لنا البحث فى شئونها بحيث نحدد مكاتها فى ذلك المجتمع تحديدا يرضى التاريخ الصحيح . ولكن يكفى أن نعرف أنها بلغت من المكانة فى ذلك المجتمع ما لم نر له مثيلا فى الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد بلغت فى مصر القديمة مرتبة الملك ، وكفى بذلك دليلا على أنها بلغت فى مصر ، وفى فجر التاريخ البشرى ، منزلة السلطة العليا فى دولة استبدادية ، لا أثر للديموقراطية فيها . ولم تبلغ فى الحضارة اليونانية من الأثر العملى ما بلغت فى الحضارة الرومانية . ومن أعجب حقائق التاريخ ، أن تتبوأ المرأة أعلا مدارج المجتمع فى حكومة استبدادية كحكومة مصر القديمة ، وتتوارى من أفق المجتمع كله فى بلاد اليونان ، التى ورثنا عنها النظم الديموقراطية الحديثة . ولا شك فى أنها كانت ذات أثر بالغ فى حياة الرومان ، حتى لقد وجهت سياسة الدولة فى عصر

أوغسطس ، أول قياصر الرومان ، زمنا خص بأنه شهد
نشأة الامبراطوريات العظمى في العالم .

وهكذا كان للمرأة أثر يبين في تاريخ الانسان في عصور
همجيته وفي عصور تدمينه ، وسوف يكون لها في المستقبل
أثر أعظم ، وتاريخ أروع وأخلد .

— ٣ —

لما سقطت الدولة الرومانية ، وحطمها الهمج الذين هبطوا
أوربا من فجاج آسيا ، وورثت أوربا عنهم نظام القطار ،
انكفأت المرأة بغريزتها راجعة الى تلك الحدود التي لزمها
خلال عصور الهمجية الأولى ، ونزلت عن تلك المكانة السامية
التي تربعت على عرشها في بعض المدن القديمة . ولقد ظلت
المرأة على هذه الحال حتى كانت العصور الحديثة ، فأخذت
في أوربا شيئا من مكانتها التي بلغت في مصر القديمة ، اذ تربعت
على عرش الملك ، ورن صوتها الغرد في فجاج التاريخ مرة
أخرى .

عند ما أدركت أوربا الثورة الصناعية ، ولفتها مبادئ
الحرية الديمقراطية ، وماشت المرأة الرجل في التعليم ،
تطلعت الى حقوقها السياسية ، وأخذت تعمل جاهدة في
سبيل تحقيقها لتكمل بذلك ذاتيتها . فلئن كانت المرأة
قد حققت ذاتها وأثبتت وجودها في ميادين كثيرة كالأمومة

والزوجية والأسرة والجهاد والحرب والملك ، فانها ولا شك
تجنح اليوم الى أن تكمل ذاتيتها بأن يكون لها في ميدان
السياسة والاجتماع والعمل ، تلك الحقوق التي حرمتها خلال
العصور الغابرة . تلك الحقوق التي لا ينكرها الشرع
ولا تأبأها الطبيعة .



ان الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية .
فبعد أن سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذي تربعت من
فوقه في العصر الروماني، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى،
فقبعت راضية ، حتى أدركتها العصور الحديثة ، فهبت من
غفوتها تطالب بحقوقها السياسية ، تلك الحقوق التي ساوت
فيها الرجل مساواة تامة . أما بداية جهادها في سبيل ذلك ،
فيرجع الى ما قبيل الثورة الفرنسية في أواخر القرن
الثامن عشر ، اذ بدأت تحتل مشكلتها العالمية مكانا في آداب
الأمم الغربية .

غير أن جهاد المرأة في ذلك العصر كان جهادا سلبيا ،
دللنا عليه أن كثيرا من نابهى الكتاب والفلاسفة قد خصوها
فيما كتبوا ببحوث وإشارات عبرت عن أن في جو المجتمع
مشكلة هي مشكلة المرأة ، ومسألة معقدة هي مسألة الشطر
الآخر من الجمعية البشرية .

ومن أعجب العجب أن « جان جاك روسو » ، على كثرة ما أشاد في كتابيه « العقد الاجتماعى » و « أميل » الذى كتبه فى أصول التربية ، واستمساكه فىهما بنظرية أن الحرية حق طبيعى للإنسان ، لم يذكر أن للمرأة حقا يقال له « الحق السياسى » . وجاراه فى ذلك بقية الكتاب الذين نحوا نحوه واتبعوا مذهبه . ذلك فى حين أن مذهب هؤلاء جميعا هو أن الحق السياسى حق طبيعى لا يسقط عن الإنسان ولا يسلب منه حتى ولو تعاقد هو على حرمان نفسه منه ، بل قالوا أن التصويت حق عام لكل أفراد الجمعية ، وأنه جزء متمم للحرية فلا يسلب ولا يتنازل عنه أو يحرم منه فرد ما من الأفراد . ذلك بأن الحرية شئ طبيعى ، وكذلك متعلقاتها وتوابعها .

أليس عجيبا أن أولئك الذين يقولون بتلك الحرية الواسعة ويقدمونها ، وينزلونها هذه المنزلة ، التى لا شك فى أنها صحيحة من كل وجه ، هم بأنفسهم الذين يعضون فى بحوثهم قانعين بأن يظل نصف الراشدين من مجموع الأمة عطلا من هذه الحقوق ، وأن يحرمهم النصف الآخر من التمتع بها ، فيطغى على حقوقهن فيها ، فلا يجعل لهن نصيبا من الاشراف على التشريعات التى تتعلق بأموالهن الشخصية ، بل هى قد تنصب على كل أقدارهن فى هذه الحياة الانسانية؟

لقد كتب « روسو » عن المرأة وفصل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتاب القرن الثامن عشر الى ذلك الدرك الذي انحدر فيه « روسو » اذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . غير أنه عقب على ذلك بقوله :

« ينبغي أن يكون تعليمهن متصلا بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة ، وموضعا لحبه واحترامه ، ولتربي أولاده صغارا ، وتعنى بهم كبارا ، ولتبذل لهم النصيح ، وتنفعهم بالعطف حتى تصبح حياتهم هادئة مريحة . كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات ، يجب أن تتعلم المرأة من الصغر » .

بل ان « روسو » قد ذهب في تقييد المرأة الى أبعد من ذلك . ذهب الى وجوب تقييدها دينيا ، فلم يجعل لها حق اختيار العقيدة التي تتصل من طريقها ببارئها ، وقضى بوجوب أن لا يكون لها دين غير دين زوجها ، فهي مقيدة به محصورة في حدوده . شأنه في ذلك شأن « فلوطرخوس » في العصر الروماني ، وقد قضى كلاهما بأن على المرأة أيضا أن تعمل على غرس بزور دينها الذي هو دين زوجها ، في عقل بناتها ، والا فانها تكون قد قصرت في أداء واجب من أقدس الواجبات . قال :

« حتى ولو كان ذلك الدين زورا محضا ، فان طواعية المرأة وبناتها ، وخضوعهن لذلك الشرع الطبيعى ، تكون عند الله وسيلة لغفران الخطيئات . ومن أجل أن النساء غير قادرات على أن يحكمن على الأشياء حكما ذاتيا ، فعليه أن يخضعن لأحكام آبائهن وأزواجهن خضوعهن لحكم الكنيسة » .

لم يشذ عن هذه الطريقة التى اتبعها كل كتاب الثورة الفرنسية غير الفيلسوف « كوندورسيه » ، فقد ظهر فى بعض كتابات ظهرت له سنة ١٧٨٧ ، وتكاد تكون من منسيات ما كتب ، الى القول بأنه من المستحيل أن تستقر حقوق الانسان على قاعدة ثابتة ، ما لم يعترف بهذه الحقوق للمرأة ، وان كل الأسباب التى أدت الى الاعتقاد بأن لكل رجل الحق فى أن يكون له صوت مسموع فى حكم بلاده ، هى الأسباب التى تحملنا على اضافة هذه الحقوق على النساء . قال :

« وعلى الأقل للواتى هن أرامل أو غير متزوجات » .

ولو لم يقيد « كوندورسيه » رأيه بذلك القيد الذى هو أثر من آثار الفكرة السائدة فى عصره ، اذا كان أول رائد دافع عن حقوق المرأة فى العصر الحديث .

ولارىب فى أن موقف كتاب فرنسا من المرأة فى ذلك العصر كان فذا غريبا ، اذا تذكرنا « ماريا تريزا » والملكة « كاترين » فى روسيا ، والمكانة العليا التى شغلتها كل منهما فى سياسة

بلادها خاصة وسياسة أوروبا عامة . أضف الى ذلك المنزل السامية التي احتلتها نساء موهوبات في الاجتماع والأدب والبحوث العقلية وفي الحياة السياسية ، منذ انقضاء عصر لويس الرابع عشر . ناهيك بما كان للمرأة من موضع في الهاب روح الثورة في فرنسا ، وما كان لها من تضحية فيها . وأية تضحية أعظم وأنبل من تضحية مدام « رولان » و « شارلوت كورداي » وأولاهما من الموهوبات في السياسة والأدب ، والثانية من الفدائيات . كانت الأولى من أعضاء حزب « الجيرونديين » المبرزين فيه ، وكانت الثانية من المضحيات اللواتي تذكرهن فرنسا الى جانب « جان دارك » ، وقد سقطتا على المقصلة ، مع رجال من أبرز رجال العصر .

- ناهيك بما عليه كثير من المؤرخين الذين يعتقدون أنه ما من كاتب استطاع أن يزن حوادث ذلك العصر بميزان أدق أو عقلية أرحب أو أفق أوسع من مدام « ده ستايل » . كذلك نعلم أن انسانا ما من الذين عاصروا الثورة ، لم يستطيع أن يلهب بمواقفه نيران الحقد والغضب استمساكا بوجهة من النظر السياسي ، فكان أعنف وأصبر على مكاره ذلك الموقف النكد من الملكة « ماري انطوانيت » ، وهي بشهادة الجميع من أكثر اللواتي سقطن على المقصلة استنارة فكر واستقامة رأى وثبات جنان .

قيل ان نابليون قابل ذات يوم أرملة « كوندورسية » وكانت من زعيمات الثورة فخطبها محتدا وفي نبراته نغمة الأمر الذى لا ينتظر ممن يخاطب جوابا : مدام — انى لا أحب أن تتمحك المرأة فى السياسة — فأجابته على الفور : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعى فى بلد تحتز فيه رءوس النساء ، أن يكون هن الحق فى أن يسألن عن السبب فى ذلك !

ولا يجدر بنا أن نغفل فى هذا المقام عن ذكر ما كان للمرأة من أثر فى عصر النهضة فى أوروبا . ولنضرب لذلك مثلا بما كان لتعليمهن من أثر فى حياة ذلك العصر .

وأول من تذكر منهن ، بل أول من تتخذ منهن مثلا يحتذى وقدوة يتأسى بها « كاترينا سفورزا » (١٤٦٢ — ١٥٠٩) فقد نشئت بعناية جدتها الدوقة « بيانكا ماريا فسكوتى » . وكانت « بيانكا » من مشهورات أهل زمانها . ففى كل المعارك التى اشتبك فيها زوجها « فرنشيسكو سفورزا » كانت مساعده الأول ونصيحه الأمين ، بل كانت فى بعض الأحيان قائدا مقداما مرنا ، فقادت الجيوش فى حومة الوغى وانحدرت بهم الى المعامع تناضل نضال النمرات . وكانت الى جانب هذا معبودة الجماهير لطهارة ذيلها وعفتها وحديثها على المظلومين والضعفاء ، وحنوها على الذين أخنى عليهم

الظلم ، وفعل بهم الاستبداد . كانت حماسة السلام ورسول الشفقة ويد الرحمة ، كلما استعرت نيران البغضاء واستيقظت روح العدا ، وفشت الأخطاء وعمت التعاسة . وبهذه الصفات علمت « كاترينا سفورزا » الحكم كيف يكون .

تلقت « كاترينا » من التعليم قسطا وافرا ، على النهج الذى اتبع فى ذلك العصر . وكانت التقاليد القديمة قد أخذت تنهار قبيل عصرها ، وتحل محلها تقاليد جديدة . فان نساء العصر الأول — أى عصر ما قبل النهضة — كن محجوبات عن الاشتراك فى معضلات الحياة العامة ، والأخذ بقسط فى معالجة مشاكل العصر ، على كثرة ما كان فيه من مشكلات . فكان من حظ « كاترينا » أن يقضى قبل عصرها على هذا التقليد ، فيأخذ النساء بضلع وافر من الاشتغال بشئون السياسة والحرب ، وتدير أمور الدويلات والاحتكام فى نزر غير يسير من الظروف التى عدلت وجه التاريخ الحديث .

بلغت العناية بأمر الثقافة النسوية فى عصر « كاترينا سفورزا » أعظم مبالغها . فان سيدات ذلك العصر ، على ما يقول ثقة المؤرخين ، قد تلقين من العلم ومن أساليب التربية والتنشئة ما قد ينذر أن يتهياً لمثيلاتهن من بنات عصرنا هذا . فقد برزن فى الآداب القديمة وفى اللغتين اليونانية واللاتينية ، قراءة وكتابة وتفقهها ، كما أعطين قسطا

وافيا من العلم بآداب عصرهن ، فى بلادهن وفى غيرها من
البلاد ، وتثقفن فى الفن والعلم والموسيقى والرقص وركوب
الخيول والألعاب الرياضية .

ومن مشهورات ذلك العصر « سيسيليا جونزاجا »
و « ابولينيا سفورزا » عمة كاترينا سفورزا ، وبعد ذلك
بسنين قلائل اشتهرت « ايزابلا دسطة » و « اليزابتا
جونزاجا » ، وكل منهن مثال يحتذى فى الثقافة الواسعة
والقدرة الشاملة والعبقرية الكاملة . فقد نعلم ان « ابولينيا
سفورزا » وكانت فى الثانية عشرة من عمرها ، قد ألقت
خطبة من تأليفها باللغة اللاتينية ، ترحيبا بالبابا « بيوس
الثانى » عندما حل ضيفا على أبيها . وفوق هذا أن « سيسيليا
جونزاجا » كانت تكتب اللغتين ، اليونانية واللاتينية ،
وتقرؤهما وهى فى الثامنة .

ونقل الينا أن « كاترينا سفورزا » قد أنشدت أبياتا
من الشعر نظمها باللاتينية ترحيبا بالكردينال « رياريو »
عندما نزل ببلاط أبيها ، وهى فى العاشرة ، وعن « اليزابتا
جونزاجا » انها كانت تغنى أشعار « فرجيل » موقعة بأناملها
على القيثارة . وعن « ايزابلا داسطه » انها كانت تقرأ فرجيل
وكيرون وهى ما تزال يافعة ، وانها والت درس الآداب ،
حتى بعد أن أصبحت مريضة « مانتوا » . ولاشك فى أن

ذلك العصر ، عصر النهضة ، قد طبع بطابع الأدب العالى ، حتى لقد اعتقد أهل الطبقات العليا فيه ، أن تعلم الآداب القديمة من حاجات الحياة الأولى ، سواء للرجل أم للمرأة ، وأنه يزيد المرأة جمالا وفتنة . فلم يكن هنالك من فارق بين تربيته الفتي وتربية الفتاة .

تقتصر على هذه الصورة التى نقلناها عن عصر النهضة فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، فنقتضى بأن تعليم المرأة قد انحدر وفسد ، والرأى فيها اضمحل وأسف ، من بعد ذلك . وشاهدنا على ذلك « روسو » قبيل الثورة الفرنسية .

ولكننا اليوم عند رأى « كاستيلونى » الذى قال فى المرأة الكاملة :

« ان كل الایحاء انما یأتى من طریقها ، وانه من خصائص المرأة المثقفة أن تلهب فى الرجل نار الشجاعة ، وتبعث فى نفسه الأمل فى حومة الوغى ، والنهى فى قاعة المشورة ، والالهام فى عالم الفن ، والضرب فى رحاب المعرفة ، والسمو فى ميدان الفضيلة ، والتقوى فى مفاوز الدين » .

لقد قام فى أثناء الثورة الفرنسية بعض الذين حاولوا أن ينادوا بحقوق المرأة السياسية . ومنهم رجال آمنوا بأن انكار ذلك الحق على المرأة ، فيه منافاة للعدل وانتهاك للفكرة

الأساسية في الحرية ، وأنها ملك مشاع لأبناء آدم وحواء ،
وانها حق أبدي أزلي لا يسلب ولا يلغى ، بل انه حق ملازم
للحياة الانسانية نفسها ، وان الاعتداء عليه ، مساو تماما
للاعتداء على الحياة .

ولكن بالرغم من كل هذا كان نصيب كل حركة فكرية
اتجهت هذا الاتجاه ، القمع السريع والكبت العاجل بشدة
وعنف . ومثال ذلك : أن حكومة الثورة قد حلت جميع
الهيئات التي أقامها النساء . فكل النوادي والجمعيات والهيئات
السياسية التي أسسها النساء في فرنسا قد حلت وحظر بقاؤها ،
وحرّم النساء شهود اجتماع الهيئة الثورية ، حتى لقد هددهن
« شوفيت » أحد رجال الثورة ، بأن تدخلهن في السياسة ،
تجاوز لحقوق جنسهن ، واعتداء على الشرع الطبيعي .
هنا نستطيع أن نقارن بين حال المرأة ومركزها الاجتماعي
في طبقات المجتمع العليا في عصر النهضة الأوروبية ، وحالها
في عصر الثورة الفرنسية ، لنحكم أيهما كان عصر النور
والعرفان .

— ٤ —

نشرت « ماري وولستونكرافت » الكاتبة الانجليزية
كتابها « تأييد حقوق النساء في انجلترا » وقصدت به أن يكون
ردا على مذهب روسو ؛ فكان أول حافز جدى حمل المفكرين

على أن يتخذوا من هذه المعضلة موقفا إيجابيا ، أخرجهم من موقف السلب الذى لزموه ازاء حقوق المرأة ، وشاع فى الجو الأدبى نزعة الى بحثها والتفكير فيها . ولم يكن فى ذلك الكتاب عنصر يرفعه الى طبقة الكتب التى أحدثت الانقلابات الفكرية ، كما أن حياة مؤلفته قد أضافت الى كثير من نواحي الضعف فيه ، بالرغم من أنه خلو من نزعات العنف والثورة . فانها لم تعرض مثلا الى مهاجمة نظام الزواج ، وكان الكلام فى ذلك لزاما على كل من يبحث مشكلة المرأة وحقوقها الاجتماعية ، بل انها تكلمت فى نظام الزواج بروح الاحترام فقالت انه : « ينبوع كل الفضائل الاجتماعية » . وحثت المرأة على التزام الفضيلة ، واتباع ما توحى به شريعة الآداب ، ومراعاة مكارم الأخلاق ، على اعتبار أن جماع ذلك إنما هو من واجبات المرأة الأولية . وبالرغم من أنها حثت على مشاركة المرأة الرجل فى جميع لباتاته ووجوه تعليمه ومناحي ثقافته ، فانها كرهت أن يكون للمرأة اشتراك فى ملاعب الرياضة !! وهذا أمر عجب ، ولا تفسير له عندى الا التأثير بروح العصر وميوله ، اذ يجعل الفكر متراوحا أبدا بين حدين لا اعتدال فيهما : فاما افراط ، واما تفريط . ذلك فى حين أن المرأة فى عصر النهضة الأوروبية ، ونقصد بها المرأة من الطبقة العليا ، قد اشتركت فى صيد الوعول

والخنازير البرية وفي التمثيل المسرحي ، وكانت تتعرض
في أثناء الصيد لمخاطر يتعرض لها الرجال .

وانك لتعجب كيف يحدث في الاجتماع الانساني ، مثل
هذه الانتكاسات العجيبة .

أنفت مثلا أن يكون نساء انجلترا محمولات بمقتضى
بيئتهن وتربيتهن على أن ينظرن الى الرجال نظرة الاعتقاد
بأنهم عائلوهن وموجهوهن في الحياة ، وكفلاؤهن في هذه
الدنيا . وإلى الزواج على أنه الغاية الأخيرة من الحياة ،
وغضبت أن يحال دون المرأة والدرس العميق الذي يوسع
من أفق العقل ، ادعاء بأن ذلك ليس من لبانات المرأة ولا من
حقوقها ، وحملت على مذهب القائلين بأن من مفاتن المرأة
أن تقتصر تربيتها على تنمية الحساسية في شعورها ، وتغذية
روح التواكل في نفسيته ، فتظل طفلة في مواهبها ، وان اكتمل
نماؤها البدني ، حتى لا تثور على الرجل ، ما دامت هي تشعر
بالحاجة الى من يكملها في الحياة .

هذه الوجهة من النظر في حقوق المرأة وتربيتها وتكوينها
عقليا واجتماعيا ، لم ترض مسز « وولستونكرافت » لأنها
فاسدة من أساسها ، فوق أنها مضرّة بالجنسين ، المرأة والرجل ،
على السواء . فاذا لم تترب المرأة تربية تؤهلها أن تكون
شريكة للرجل في حياته العقلية ، فانها ولا شك تكون عقبة

تسد على الرجل سبيل الرقى من ناحية العقل ، ومن ناحية
الفضيلة . ومن الأشياء التى يتعذر علينا أن نمر بها سادرين ،
أن يعهد فى تنشئة الشباب ، وهم بعد فى أكثر سنى عمرهم
قابلية للتعليم والتلقى ، الى عقول صدت عن العلم ، وكفت
عن التهذيب وأن يلقى بهم عند رجولتهم فى أحضان
شابات ليس هن من عطف على شىء من الأمنى التى تجول
فى صدورهم ، أو احاطة بالدراسات التى يعكفون عليها ،
أو تقديس للأعمال التى تنتظرهم فى الحياة .

ثم تقول :

« ان الاستخفاف والبله والغرور وكبت الأحاسيس
والوهم والغفلة ، هى الأشياء التى تخرج بها المرأة فى أسلوب
التعليم الذى تتلقاه . ولا ريب فى أن مثل هذه المرأة جديرة
بأن تلقى على الحياة الزوجية ظلالا من الحياة قاتمة مظلمة ،
تشغل حتما على حياة الرجل بعد أن تذهب جدة الزواج ،
ويخلق ثوب الفتنة الذى يغشى على الطور الأول من التخالط
الزوجى . أما التعليم الكامل فانه بالمرأة الفقيرة ، وبالمرأة
التي تقف فى وجهها صفات خلقية تردها عانسا ، أخلق ولها
أفيد . ذلك بأنها تكون مضطرة أن تخوض معركة هذه
الحياة وحيدة بغير معين أو كفيل . أما اذا تركت الى الحياة
وحظها من التعليم ذلك القسط الدنى الذى يخلفها بغير

سلاح تواجه به حاجات العيش ، فان حياتها تكون من
المصائب العظمى والبلايا الكبرى » .

ولقد عمدت الى مؤلفين من أهل عصرها نقلت عنهم
أقوالا امتدحوا بها ضعف المرأة جسمانيا وعقليا ، عادين
ذلك من مفاتها ، حاسبين ذلك لها ، لا عليها . بل ان بعضهم
قد ذهب الى القول بوجوب ان تبتعد المرأة عن كل نشاط
جسمي ، أو مرانة عقلية ، وأن على المرأة أن تمتنع عن كل
ما يهيء لها روحا مرحة ، أو يزودها بجسم صحيح البنية
متين التركيب ، وأن تتكبد سبيل الدرس العقلي والاستقلال
في الرأي أو الاستمسك به ، حتى لا يضعف ذلك من فتنتها
في عين الرجل . بل قيل ان المرأة لا ينبغي لها أن تمن في
التدين والتقوى ، فربما خانها الحظ ، وهي مأخوذة بتقواها ،
ممعنة في تأملاتها القدسية ، فتسمو الى مدارج أعلى من مدارج
الرجل ، وأعمق من مفهومه ، وبذلك تنزل عن مكائنها
في عينه .

ولقد ثارت هذه الكاتبة على كل هذا وأمثاله ثورة جد ،
قائلة ان الفضائل ليست وفقا على جنس دون جنس ، وان
ما يصلح منها لأحدهما ، ولا شك يصلح للآخر . ولقد
تساءلت لماذا يكون الجبن رذيلة في الرجل ، فضيلة في المرأة ؟
وخلصت من ذلك الى القول بأنه استنادا الى الحقوق الطبيعية ،

يكون للمرأة حق التمتع بالقوة السياسية ، وان حقها في ذلك أمر لا منازع فيه ولا مانع منه ، وان تمتع المرأة بحقوقها السياسية ، باعتبار أنه وسيلة الرقى ، هو بذاته عامل من أمضى العوامل في تربية روح الجماعة ، وحافز من أكبر الحوافز على تهذيب رأى العام وتنمية الروح القومى .

وكان لها في المرأة من حيث العمل رأى طريف ، فقالت انه من الظلم والبغى أن تمتع المرأة ، بالقانون طورا ، وبالشرائع طورا آخر ، عن العمل في سبيل الحصول على ما يقيتها ، وقد كفتها الطبيعة عن التزود بسلاح فعال في التناهر على البقاء . وهى تظن أن مهنة الطب خير ما يوافق مزاج المرأة ، وأن القوانين التى تحول بين المرأة والعمل ان عطلت ، فانها سوف تنزع بطبعها الى ضروب من العمل توافق مزاجها ومواهبها .

على هذا يكون للمرأة حق التعلم على نفس الطريقة والمنهج الذى يتعلم به الرجل . ونعت على عادات عصرها أن كانت السبب فى أن يعيش آلاف من النساء والفتيات عيش الفراغ والخلول ، وعزت الضعف النسوى فى عصرها الى طريقة التنشئة والى ما أتبع من أصول التربية وحبس الفتيات فى داخل الدور والحجرات من غير رياضة أو مرانة جسدية ،

حتى خملت فيهن قوة العضل ، وأصابهن سوء الهضم ،
وما اليه من صنوف العلل وضروب الآفات .

— ٥ —

بالرغم في أن هذا المتجه في البحث قديم في عصرنا هذا ،
فانه أثار في عصر هذه الكاتبة كثيرا من الامتعاض والتقزز ،
في أوساط المحافظين من أهل الأمم الغربية .

غير أن أثره قد ظهر وشيكا في تفكير كثير من عظماء
الرجال ، وكانت الناحية السياسية من حقوق المرأة ،
أبين من غيرها أثرا في تفكيرهم . فقد أشار السياسى المعروف
تشارلز فوكس اليها في خطبة ألقاها في مايو من سنة ١٧٩٧ ،
وكان رأيه أنه — « فيما عدا الشركات ، وهى ما يؤثر حق
التصويت بشأنها على الملك » — يرى أنه من المرغوب فيه
أن يعطى حق الانتخاب للنساء ، ولا يمنع ذلك حتى في المسائل
التي تتصل بنظريات أو مشروعات يتطلب النظر فيها دقة
خاصة . ومن رأيه أن للنساء مصالح يجب أن تصان ، وهى
مصالح عزيزة عليهن ، ولا ثقل شأننا لديهن عن مصالح
الرجال .

قال : « لا ينكر أحد أن نساء الطبقة العليا هن أحق ،
من حيث الكفاءة والمواهب ، بمباشرة حق التصويت في
الانتخاب ، من أولئك الرجال الجاهلاء الذين هم من الطبقة

الدنيا في المجتمع ، وهم الذين يحاول القائلون بحق التصويت العام ، اضاء « ذلك الشرف عليهم » . وخلص من ذلك الى البحث في كيفية الخلاص من ذلك الشذوذ الغريب : فانه اذا كانت الغاية من كل نظام سياسى رشيد ، هو الحصول على مصوتين مستقلين في الرأى ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه الحقيقة وبين شرائع المجتمع ، وربما شرائع الطبيعة أيضا ، وهى التى جعلت المرأة عالة على الرجل ؟ .

ولقد نسى ذلك السياسى الكبير أن المرأة لن تظل الى الأبد عالة على الرجل . فان تطور النظم الاجتماعية ، وخروج الانسان من عالم الظلمات الى نور المدنية ، كفى بأن يجعل للمرأة فى النظام المدنى منزلة مستقلة تماما . غير أن أفق الحياة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وضعف النظم الاقتصادية وضيق نطاقها ، والعادات والتقاليد الموروثة منذ أقدم العصور ، تجعل لذلك الرجل الفذ بعض الحق فى تساؤله هذا .

وكان الفيلسوف « جرمى بنتام » ممن تناولوا موضوع المرأة فى عصره ، ولكن أقواله وإشاراته لم تتجاوز حد أنها أفكار عابرة غير مستقرة . وكان من رأيه أن من الظلم والتعسف أن يحرم النساء حق التصويت فى إنجلترا ، فى حين أنهن يشغلن فى الدول الأخرى مراكز ممتازة فى عالم السياسة

والاجتماع ، وقد حصل بعضهن على قدر من السلطة السياسية
في بعض دول القارة بلغن به أرفع الذرى • ولكنه الى جانب
هذا كان متشائما ، فلم يتاد في بحث هذا الموضوع الخطير ،
لأن القوى المتناصرة على كفته كانت كبيرة ، وسيل الفكر
المتجه الى قمعه كان جارفا ، فتنكب الكلام فيه ، ظنا بأنه
الجهد المضيع ، والعمل الفائل •

— ٦ —

نشر « بايلي » كتابه « التمثيل السياسى » سنة ١٨٣٥ ،
وهو من الكتب التى أحدثت في عصره انقلابا من أخطر
الانقلابات الفكرية فى السياسة ، وقد أيد فيه نظرية حق
المرأة فى التصويت العام •

كان من رأيه أن النظام التمثيلى يقوم على مبدئين
أساسيين : الأول : أن الغاية من الحكومة العمل على اسعاد
الجمعية ، نساء ورجالا ، لأن كلا الجنسين له قابلية التأثير
باللذة والألم • والثانى : أن مباشرة الحقوق السياسية ينبغى
أن تكون لخير جميع الفئات التى هى تحت كنفها ، ما دامت
هذه الفئات خاضعة لحكمها أو لحكم أشخاص تنفق مصالحهم
ومصالح أولئك الأشخاص •

من هذا يتضح أن القول بحرمان المرأة من مباشرة الحقوق
السياسية ، انما يستند فى رأى « بايلي » الى أحد قولين :

الأول : أن حقوقهن تتفق وحقوق الرجال ، وأنهن محميات بما للرجال من حق التصويت ؛ والثاني : أن المرأة عاجزة عن تطبيق حقها السياسى واستعماله بحيث يعود عليها وعلى الجمعية بالخير . وبذا تكون المقاسد التى تنشأ عن اختلاف المرافق بين الجنسين ، إنما يضاعف فى التعويض عنها ، ما فى الرجل من التبصر والحكمة التى تغمر بفضلها وظيفته الحكم .

أما القول الأول فقد رد بحقائق تاريخية ؛ وذلك بأن من الحقائق الثابتة التى لم يختلف فيها مؤرخان ، أن الشرط الأقوى من شطرى الجمعية البشرية ، قد استعمل « حق الأقوى » دائما وفى مختلف الظروف ومتباين الحالات ، مستبدا بالشرط الأضعف ؛ وانه فى جميع العلاقات التى قامت بين الرجل والمرأة ، كما هى الحال فى كثير غيرها من العلاقات ، قد أسىء استعمال القوة ، ما دامت هى قوة مطلقة القيد غير مسئولة ، وإن ذلك كان عاما ومطردا فى كل الظروف . وقيل : لقد بذل كثير من الجهد فى سبيل تحسين حالة المرأة ، — « ولكن ما تزال سلطة الرجل على المرأة يساء استعمالها ، وانه يشك كل الشك فى امكان اقامة حدود العدل والانصاف فى علاقة الرجل بالمرأة ، قبل أن يأخذ كل منهم حقه المقسوط من الاشراف على سن الشرائع » — ولا شك فى أن كثيرا من التشريعات تتناول مسائل تتفق فيها مصلحة الجنسين ، —

«غير انه فيما يختص بالفروق الواقعية، وهى التى تتناول الصلات
الايجابية التى وزعتها الطبيعة على الجنسين ، وهى صلات
لا محالة باقية أبدا ، فان مرافق ولبانات متباينة لا بد من أن
تنشأ بينهما ، وينبغى أن يسن عدد عديد من الشرائع تنظم
حقوق كل من الجنسين وتحدد واجباته ازاء ذلك . فاذا
ترك سن هذه الشرائع ، وهى شرائع تتصل بفئتين متناظرتين ،
لشهوة فئة منهما ، فانا ولا شك نعرف النتيجة » .

وأما القول الثانى فى حرمان المرأة : فهو القائم على رأى
« بايلى » فى عجز المرأة ، وأنه فى كل الجمعيات الانسانية
القائمة ، نرى أن جنس الأنثى هو بوجه عام أدنا ذكاء من
جنس الذكر .

ولقد نسى « بايلى » حقيقة من أظهر الحقائق وأدمغها
حجة . نسى أن عقلية المرأة اذا كانت من الطبقات العليا
فى الجمعية ، ترجح عقلية الرجل اذا كان من أهل الطبقات
السفلى . وأن المرأة التى تحصل على خمسمائة جنيه دخلا
سنويا ، هى ولا ريبة أكثر اتصالا بالدنيا ومعرفة بأنبائها
من رجل دخله خمسون جنيه ، ولكنها تكون أقل من رجل
دخله خمسمائة . فاذا صح هذا رأى ، كان الصواب والحجة
السليمة ، أن لا ننبذ النساء ونحرمنهن حق أفراد الجمعية
المشتركة ، بل نعمل على أن تكون مؤهلاتهن الدنيوية أوسع

وأرحب . وقد نشك أيضا في ضرورة ما تتطلب فراسة
الانتقاء من الكفايات العليا . فمن ناحية ذلك الضرب من
الذكاء الذي نشده دائما عندما نريد الحكم على حقيقة الأشخاص
الذين يصلحون للخدمة العامة حكما صحيحا ، نجد أن المرأة
في بعض الاعتبارات ، أمهر من الرجل ، اذا كانا من طبقة
اجتماعية واحدة . واللباقة النسوية في استشفاف بعض
الصفات الخلقية في الأفراد ، أمر مجمع عليه . ومما لاشك فيه
أن مثل هذا المعاون الأمين ، يكون ذا شأن عظيم في انتقاء
ممثلي الأمة ولو أمكن وضع طريقة مثلى لأخذ الأصوات ،
مع تخليص نظام أخذها من تلك المفاصد الممضة ، والمناظر
المؤلمة التي تجعلها أقرب الى الفوضى والخشونة ، لكان مباشرة
حق الانتخاب نظاما يتفق وتنمية أرق العواطف وأثمن
العادات .

ومن رأى « بايلي » أنه اذا كان واضعوا قانون الاصلاح
في انجلترا (١٨٣٢) قد جعلوا المرأة في مرتبة واحدة مع الرجل
من حيث الحقوق العامة ، اذن لقضوا على شذوذ عجيب ،
بل على ظلم فادح ، من غير أن يضطروا الى تبديل كبير في
دوائر الانتخاب .

قال في كتابه « التمثيل السياسى » : كان ينبغى على الأقل ،
أن يعطى حتى التصويت للامراة اللائى هن بيوتا خاصة ،

أو يعشن بمفردهن ، أو اللواتى لديهن نصابا ماليا معقولا ،
وأنه لمن المتعذر أن تقع على شىء من النهى أو الحكمة فى أن
يصد أولئكن عن هذه الميزة ويحرمن منها ، اللهم الا أن
يكون قد روعى فى ذلك تلك القوضى الغامرة التى ترافق
طريقة اعطاء الأصوات ، وماهى غير بقية نظام فاسد
درجنا عليه .

وما يقوم من حجة يحتج بها الذين يخالفون « بايلى »
فى الرأى الا القول بأنه فى الوقت الذى وضع فيه قانون
الاصلاح سنة ١٨٣٢ ، لم تقم أية طبقة من النساء بالمطالبة
بهذا الحق ، وان أكثر النساء اذ ذاك كن زاهدات فيه .
أما فى أواخر القرن التاسع عشر ، فان أسبابا كثيرة قد غيرت
الموقف تغيرا كليا .

الفصل الثاني

الصناعات المنزلية - القيود التي فرضت على عمل المرأة - منافسة النساء للرجال في المعامل والمصانع - المرأة في سوق العمل - مخازن التجارة الكبيرة - المرأة في مهنة الطب - تعليم المرأة تعليماً عالياً - الحياة في صورة أكثر تحقيقاً للصحة والحياة الطيبة - التغير الذي أصاب خلق المرأة .

— ١ —

كان القضاء على بضعة صناعات منزلية ، اثر ظهور بعض اختراعات خطيرة ، من أعظم الانقلابات الداوية التي أصابت انجلترا في خلال القرن التاسع عشر . كانت تلك الصناعات وقفا على بيوت ريفية هائلة العدد منتشرة في عرض المزارع وطولها . فلما اكتسحتها تلك الاختراعات وقضت عليها ، نشأ على أنقاضها مصانع فخمة واسعة ، تستخدم عشرات الألوف من العاملات . ولقد كان لهذا الانقلاب آثار هامة يمكن تتبعها في كل مرفق من مرافق الحياة في انجلترا ، اجتماعيا وسياسيا . ولكن من المحقق الثابت أن فعلها كاذب أبين في المرأة من حيث التأثير في حياتها وعاداتها ومصالحها ، منه في أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع . وإذا نظرنا في هذا الانقلاب من ناحية بعض الاعتبارات الخاصة ، رأينا أنه قد

أنتج نتائج بالغة منتهى السوء . فمن ناحية الأخلاق كانت الصناعات المنزلية ذات أثر في الاحتفاظ بالناحية الطيبة منها ، اذ كانت حياة الأسرة غير مدخولة بعنصر جديد يفكك عراها ، كما كانت من أشد العوامل فعلا في الاحتفاظ بطبقة الفلاحين والاجراء مكفية الحاجة ، وهى طبقة من أفيد طبقات المجتمع ، وعنصر من أقوى عناصره ؛ بل ان شئت فقل انها صلب المجتمع وفقاره المقوم لحقيقته وصورته . فان آلافا مؤلفة من المزارع الصغيرة فى انجلترا ، كانت ولا شك تصبح عرضة للبيع بثمان بخس والاندماج فى المزارع الكبيرة ، عند ما تنزل قيمة انتاجها الزراعى بفعل ظروف خارجة عن ارادة المزارع ، لو لم يؤيدها فى مثل هذه المحنة الناسج والغزال . ولا شك فى أنه من أروع الحقائق الظاهرة فى الحياة الاقتصادية أن لا يعتمد الناس فى معيشتهم على مصدر واحد من مصادر الثروة ، وانه من الحكمة أن يكون من وراء ذلك المصدر مصدر آخر تابع له ، يأخذ بيدهم اذا أصابهم الكساد أو نزلت بهم قلة . فكانت المصانع المنزلية من حيث ذلك ذات قيمة كبيرة ، وكان من الممكن أن يفزع اليها كلما دقت ساعة الحاجة وحزب الأمر . وكانت هذه المصانع فى الواقع وسيلة لاستغلال فراغ أشهر الشتاء ، عندما تتطلب المزارع قليلا من العناية والوقت .

ان عمل المرأة يتراوح بين الشغل والفراغ تراوحا شديدا ، لا نظير له في عمل الرجل . فان عمل امرأة متزوجة من طبقة العمال ينحصر في العناية بمنزلها وأسرتها ، ولكن كمية العمل المطلوب منها أداؤه تلقاء ذلك ، تختلف اختلافا كبيرا بمقتضى الحالات . فهو يتوقف الى حد بعيد على عدد أبنائها ، وعلى سنهم وصحتهم ، والدرجة التي وصلوا اليها في التعليم ، وعملهم في خارج المنزل ؛ والى وجود بنات لها وسنهن وقدرتهن على مساعدتها أو احتياجهن اليها . فحياتها في سنة ما قد تكون مثقلة بالعمل ، وفي أخرى مخلة بالفراغ . وفي مثل هذه الظروف تعمل الابرة والوشيجة ^(١) والنول اليدوي ، فتصبح أشياء بالغة القيمة .

كل هذه الصناعات وأترابها مما له صلة بها ، قد عطبت وبادت . ناهيك بأن الصناعات المنزلية لا يتسنى لها أن تنافس المصنوعات التي تخرجها الآلات ، وهي أرخص ثمنا وأتقن صناعة . وكذلك هي الحال في عالم الانتاج الفني . فان الآلات قد قاربت من حيث القدرة على الجمال الفني صناعة اليد ، وقد مضت في ذلك شوطا قد يؤدي بها الى التفوق عليها .

انظر الى صناعة « الدانتلا » مثلا فان الآلات قد برعت

(١) أكرة الفسج

فى صناعتها براعة أدت الى القضاء عليها قضاء مبرما بين
الأيدى العاملة وكانت من أعظم الصناعات اليدوية فى
بلجيكا قبل نشوء تلك الآلات وقبل اقامة معاملها العظيمة
فى تلك البلاد . ذلك بأن المنافسة بين الآلة والانسان ،
قد قضت على الانسان ، وأقامت صرح الآلة . وكذلك الحال
فى الملابس التى كانت تغزلها وتنسجها الأسر فى داخل المنازل .
فان رخص المنسوجات الآلية ، قد قضى تقريبا على صناعة
الثياب المنزلية .

قد يتفق أن يكون مجال الاستخدام والعمل قد اتسع
بوجود الآلة ، ولكن مما لا شك فيه أن مقدار العمل المنقطع ،
أى الذى تتخلله فترات فراغ وتعطل ، والعمل الناشئ اتفاقا ،
أى الذى تتطلبه ظروف طارئة ، قد يحتمل أن تكون فرصه
قد ندرت أو هى كادت تزول تماما . وعلى الحقيقة نجد عند
النظر فى طبقة أرفع بعض الشئ من طبقة العمال والصناع ،
ان الصحافة وصناعة الأدب والتأليف مثلا قد هيات عملا
للكثيرين ، وان هذه الأعمال ، وان لم تتخذ صناعة دائمة فى
بعض الأحيان ، فانها بطبيعتها قد تشحذ بعض المواهب حتى
يصبح الاشتغال بها ملكة وفنا دائما ، وبذلك تضيف الى
الحياة قسطا من المرح والفائدة ، قد نلنى ان الحياة بغيره
ذميمة مردولة . ذلك على العكس مما تقع عليه فى عالم الصناعة .

فان الصناعة قد تركزت وتبلرت في مواضع خاصة لا توجد في غيرها ، فانتقل بذلك عمل المرأة العاملة من البيت الى المصنع .

وكان من الضروري أن يسن لهذه الصناعات الهائلة قوانين تتدخل في شئونها فتنظمها وتحميها . ولم يكن هنالك من حاجة اليها عند ما كانت هذه الصناعات مقرها البيت ومصنعها جلسة هادئة الى جانب الموقد . وقد شعر كثير من المصلحين بأن هذه الشرائع المنظمة للصناعة ظلت في الماضي وستظل في المستقبل ، من أشكال ما ينصرف اليه السياسيون ورجال الدولة من المهام والواجبات . وهنالك الى جانب هذا شرائع تتفق ازاءها مصالح الرجال ومصالح النساء على السواء . وان قليلا جدا من المعضلات الاجتماعية ما يفوق معضلة الى أى حد يذهب القانون في حماية المرأة من التأثير بدنيا وعقليا من جراء ارهاقها بالعمل ، من غير أن يحرمها القانون حق العمل ، ويحول بينها وبين مزاحمة الرجل فيه ؟ فاذا تنافس طائفتان من الناس تختلفان في القوة البدنية ، كما تختلفان في قيمة الأجر الذى يصيب كل منهما جزاء العمل ، فلا شك في أن مصالح متناظرة تنشأ بينهما . فاذا قام ممثلو ناحية منهما بوضع القوانين التى تنظم العمل ، فمن الراجح جدا أن الناحية غير الممثلة تتأثر لحساب الناحية الأخرى . وذلك

ما حدث في إنجلترا وفي كثير غيرها من البلدان الصناعية .
فإن عمل المرأة تنظمه قوانين خاصة أشد وأمعن في الحرج
من القوانين التي تنظم عمل الرجل . فالمرأة ممنوعة من العمل
الليلي ومن العمل في باطن الأرض ومن العمل في المصانع
أسابيع معدودات بعد الوضع ، ومن الاشتراك في جماعات
العمل الفلاحي . وهن فوق ذلك ممنوعات من العمل أمام
الآلات الخطرة . والساعات التي يعملن فيها محدودة في كثير
من المناطق بالقانون ، ومركزهن في العمل مركز الفتيان
الذين لم يرشدوا بعد .

غير أنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن الحجج التي أقام عليها
المشرعون هذه الفوارق ، هي من القوة بحيث لا يستطيع
أن يناقش فيها أو يمارى في صحتها . ومهما يكن من أمر
المنازعة واختلاف الرأي في الفروق التي تفصل بين الرجل
والمرأة عند مقارنة الكفايات ، فلا يخامرنا الشك مثلا في أن
المرأة أقل من الرجل قوة جسمانية وقدرة على العمل . ومن
عادة النساء ، وهي عادة تكاد تكون طبعا فيهن ، أنهن يحملن
أنفسهن من العمل ما يرهقهن ، ولهن في ذلك ميزة على الرجل
من حيث الانتاج ، ولكنها ميزة تفودهن الى الانتحار البطيء .
ويظهر أن النساء في بعض الحالات أكثر تعرضا الى النتائج
السيئة الناشئة عن الاشتغال ببعض فروع الصناعات ذوات

العلاقة المباشرة بالصحة . فمما يقال مثلا ، وقد يكون حقا ،
أنهن أكثر استجابة للتسمم بالرصاص ، وفي سن أبكر ،
من الرجال . غير أن حقيقة طبيعية لا مناص من تقريرها
في مثل هذا البحث ، وقد تفصل بين الرجل والمرأة فصلا
تاماً من حيث العمل : تلك حقيقة أن المرأة لا ينبغي أن تحسب
أنها امرأة وحسب ، ولكن يجب أن يضاف إليها حقيقة
الأمومة . فان التأثيرات القاتلة التي تؤثر في الأم وفي الجنين ،
قبيل الوضع وبعيده ، من جراء العمل المرهق ، وانصراف
الأم عن العناية بولدها في الأسابيع الأولى من حياته ، هي
من الحقائق التي لا منازع فيها .

ومهما يكن من أمر اختلاف الرأي بين الرجال والنساء
أزاء ما يتطلب هذا الموقف من تشريعات على هذا النمط ،
فان المسألة في ذاتها من أعقد المسائل الاجتماعية وأكثرها
تشعباً . ذلك فوق ما نلمس فيها من الدقة وما يتطلب علاجها
من ترفق بها وبعد نظر فيها . ومن هنا حق للمرأة أن يكون لها
صوت مسموع ورأى يوزن .

هنالك شكاوى رددت الفينة بعد الفينة ، كقولهن مثلا
ان التشريعات التي نظمت العمل في المصانع قد أخرجتهن من
كثير من الأعمال التي كانت تدر عليهن رزقا ، وأنها أُنقصت
أجورهن ، وكانت بطبيعتها أقل من أجور الرجال ، وأنها

ثالث بقسوة غاشمة من طائفة كبيرة من النساء اللواتي يعملن في صناعات مهمة قليلة الأجور ، ولكنها كانت تروج وتثمر في بعض المواسم تبعا لرواج نماذج موسمية مثلا .

من البراهين التي أدلين بها : أن كل تقييد يتناول حدود عملهن بمنعهن عن العمل نفس الزمن الذي يعمل فيه الرجال ، وبنفس الكمية ، معناه احلال الرجال محلهن في فرع ما من فروع الصناعات التي يتناولها ذلك التقييد .

أضف الى ذلك أن هذه القيود قد فرضت على النساء ، في عصر اشتدت فيه حاجتهن ، أكثر من أى عصر آخر ، الى العمل للحصول على ما يقوم بأودهن ، وأنه في ظل التنافس القائم في عالم الانتاج الحديث ، قد تحدث نزعة العطف على المرأة ، اذا لم يسوغها الواقع ، نفس الأثر الذي تحدثه رغبة الرجال في اقضاء النساء من حيز العمل المنتج ، فيقع عليهن بذلك من المضار ما تعجز الأجيال أن تصلح من أمره شيئا .

هناك فئة من المصلحين الاجتماعيين قالوا بوجوب حظر العمل في المصانع على المرأة حظرا قاطعا . وآخرون أرادوا أن يطبقوا على المرأة قانون العمل الخاص بالفتيان الذين هم دون الثانية عشرة العاملين في مخازن البيع ، فينتج عن ذلك ، كما اعتقد كثير من النساء العاملات في القرن التاسع عشر ،

استبدال العاملات بالعمال فى كثير من الأعمال التى يعتمد
ففى عليها أكثر شىء .

— ٢ —

قلما اجتمع مجلس من مجالس التشريع فى أنحاء أوروبا
خلال القرن الماضى فلم ينظر فى تشريعات العمل ليفرض على
العمل النسوى قيودا ترمى الى شلهم ودفعهم عن منافسة
الرجال ، بما يسن من شرائع ولوائح تنظم العمل ، حتى يؤدى
تنظيمه الى هذه النتيجة . وأكبر مثل على ذلك ما وقع
فى انجلترا سنة ١٨٩٥ عندما أقر مجلس العموم قانون المصانع
الذى أدخل المغاسل العمومية فى نطاق العمل الذى تنظمه
القوانين ، فسن قيودا جديدة تناولت الزمن الاضافى الذى
يحق للمرأة أن تعمل فيه تحت ظروف خاصة ، وشفعها بقيود
أخرى تناولت عملهم فى المنازل بما ينتقص ذلك العمل انتقاصا ،
وهيئ وزير الداخلية بسلطات جديدة ، بحيث أصبح من
حقه منعهم عن العمل فى أعمال قد يترأى له أنها خطيرة
أو غير صحية .

ولاشك فى أن هذا التشريع وغيره من أمثاله ، ان هو
الاثمة قانون الانتخاب الذى لا صوت للمرأة فيه ، بل أنه
الجنى المباشر لتصويت الرجال واحتكارهم هذا الحق الطبيعى
دونهم ، واستبدالهم بذلك الحق ، مضافا الى ذلك ضغط

هيئات العمال السياسى . وما قولك فى أن التفتيش فى المصانع قد ظل الى وقت قريب ، وفى أكثر أنحاء أوروبا ، وقفا على الرجال دون النساء . وكان تعيين امرأتين للتفتيش فى المصانع سنة ١٨٩٣ فى انجلترا ، حادثا يروى فى المنتديات ويتندر به .

— ٣ —

فى المقدمة الفذة التى وضعها « تيرجو » الوزير الفرنسى المعروف سنة ١٧٧٦ للأمر العالى الذى حظر فيه نظام العرفاء ^(١) للمهن والصناع والتجار فى فرنسا ، فقرة نعى فيها تلك القيود المفروضة على الصناعات والتى — « تقصى عن العمل أحد شطرى الجمعية ، ذلك الشطر الذى هو لضعفه واستكانته ، أصبح كثير المطالب قليل الموارد ، وانه بما فرض عليه من تعاسة وذلة ، قد جنح الى الغواية والفجور ... » وقد يحدث مثل ذلك بحكم الحالات المحيطة بالصناعة الحديثة ، تلك الحالات التى تتجت من جراء ما سبب من التشريعات المنظمة للعمل فى المصانع .

ولا ينبغى أن ننسى أن مصالح الرجال والنساء ان اتفقت وتلاءمت فى كثير من الأشياء ، فان هذه المصالح تختلف

(١) العريف النقيب دون الرئيس والجمع عرفاء وبابه ظرف اذا صار عريفا (مختار الصحاح) .

وتتباين ، بل وتتناقض تناقضا عظيما فى نواحى العمل
الصناعى . ولذا فان الآلات ان كانت قد انزلت بالعمل النسوى
أضرارا بالغة بأن قضت على الصناعات المنزلية ، فانها
قد عوضتهن عن ذلك مزايا آخر أخصها أنها فتحت لهن أبوابا
واسعة للعمل والكسب . كذلك هى قضت على ملكة القوة
الجسمانية وأنقصت من شأنها وحطت من قيمتها ، كما أنزلت
من قيمة المهارة الصناعية بما أنشأت من ضروب التخصص
فى الصناعات وتقسيمها أبوابا ودرجات . ففى مستطاع الآلة
أن تهين للبنات الضعيفات وغير ذوات المراتة الكافية ، فرصة
القيام بأعباء من العمل كانت تتطلب فى الماضى رجالا أقوى
مخكين . زد الى ذلك أنهم فى أكثر الحالات يعملن تلقاء
أجور أقل من أجور الرجال . غير أن هنالك ولا شك
استثناءات ، صناعة القطن من أظهرها وأينعها . ولكن
مستوى أجورهن فى أكثر فروع الصناعة أقل من أجور
الرجال بنسبة ظاهرة محسوسة . وحتى فى مخازن البيع ، وهى
محال من غير الطبيعى ولا المعقول أن تتفاوت فيها الأجور ،
نجد أن أجر العاملات ينقص بمقدار الثلث عن أجر العاملين .
ويرجع اختلاف الأجور الى أسباب متفرقة . ولا شك
فى أن بعض هذه الأسباب يشير الى أن عمل الرجل ، كما يقضى
العرف ويؤيده الواقع ، أفضل وأتقن وأكثر تواصلا من عمل

المرأة ، وان النساء أكثر عددا من الرجال ، وان مجال الاعمال التى يصح ان يستخدمن فيها أضيق نطاقا من مجال الأعمال التى يستخدم فيها الرجال • كما أن بعضا من هذه الأسباب يعود الى ذلك التقليد القديم ، تقليد الاعتقاد بضعة المرأة • وهو تقليد لم تقو عادات العصر الحديث ومتجهاته الفكرية والفعلية أن تقتلع أصوله ، ثم الى الاعتقاد بأن العاملات أقل خضوعا للنظام واتباعا لمقتضياته من العمال ، ولذا فهن أقل كفاءة فى سوق المساومة على الالتحاق بالأعمال من نظرائهن الذين يتمتعون بسمعة أنهم أخلد للنظام وأرعى لأصوله •

ليست هذه الأشياء هى كل العناصر التى تكون المشكلة • فان مستوى الحياة يؤثر تأثيراً جماً واضحاً فى قيمة الأجور وتكاليف الحياة ومستواها عند العزب ، هى فى العادة أعلى من تكاليف العزبة ، اذا كانا من طبقة اجتماعية واحدة • والعامل المتزوج فى العادة عماد أسرته ، فى حين أن الأجر الذى تحصل عليه الزوجة العاملة ، فيه صفة الاضافة أى صفة أنه شىء يسد النقص الذى قد يقصر عنه كسب الزوج •

ولا ريب فى أن هذه الأشياء من شأنها أن تؤثر فى قيمة الاجر النسبى الذى يخصص لكل من الجنسين • ولكن الحقيقة أن نزول مستوى أجور النساء عن أجور الرجال ، من شأنه أن يذكى المنافسة ويشعل لظاها ، ويزيد الرجال رغبة فى أن يقصوا المرأة عن مجال العمل ، فاذا لم يستطيعوا

ذلك ، تمنوا لو أنهم ردوها الى القصور والعجز . ومما لاشبهة فيه أن القيود التى تفرضها تشريعات المصانع ونظام اتحاد المهن على العمال ، من شأنها أن تكون موضع شكوى البعض منهم . غير أنها الى جانب هذا انما تعبر عن رغبات أكثرتهم الغالبة . ذلك بأن مثل هذه الرغبة قد تستغل استغلالا فعالا فى تعزيز تلك القيود والحرمانات التى تفرض على العمل النسوى .

— ٤ —

قيل بأن العمال عند ما دافعوا عن خطة فرض القيود وزيادتها على عمل العاملات ، لم يكونوا محفوزين الى ذلك ببواعث انسانية صرفة، بل كانوا واقعين تحت تأثير المنافسة المهنية . وليس ذلك بمستغرب . فانه ولاشك تتاج احساسات عادية تظهر آثارها فى كل الجماعات الكبيرة التى تنزع لأمر ما الى التنافس . وان قليلا من الناس من يدخلهم الشك فى حقيقة أن أصحاب مهنة الطب ، ما عارضوا فى قبول النساء عاملات فى هذه المهنة ، الاواقعين تحت تأثير هذه البواعث ، ولو بشكل جزئى على الأقل . وكذلك ترى أن تقابات المهن التى طالبت باخراج النساء من العمل فى المطاحن ، قد بنوا طلبهم صراحة على أن ذلك من شأنه أن يخفف الضغط عن سوق مفعم بالعمال ، بابتعاد العدد الزائد منهن عن المزاومة فيه . والذين أدلوا برأيهم أمام لجنة العمل التى أرادت أن تزداد الحدود والقيود المفروضة على عمل النساء فى المعامل

قد ذهبوا مذهبين : الأول أن هذه القيود من صالح النساء ،
والثاني أن ميلهم الى زيادة هذه القيود انما يقوم على رغبة
في التخلص من مزاحمة العمل النسوى الذى أثر فى أجور
العمال وفى معيشتهم تأثيرا بينا .

لست أريد أن أبالغ فى الأمر . ولكن لى أن أقول ان
النساء أميل الى المحافظة على النظمات الحكومية من الرجال .
ومما لا شك فيه أن النساء اذا أصبح لهن صوت ذو أثر فى
هذه الاجور ، فانهن ولا شك لا يرغبن فى زيادة القيود
التشريعية ، أكثر مما يرغبن فى انقاصها ، وان حق تصويت
النساء فى الانتخاب اذا تم لهن ، فان نسبة قليلة مما يكون
لهن من الاصوات يكون ذا علاقة بالعمل ، ذلك بان اللواتى
سوف ينتخبن من طبقة العاملات سوف يكن قليلات .
كذلك لا ينبغى أن يغيب عنا ان التنافس بين العاملات والعمال
قد قلت حدته فى هذا العصر عما كان فى الماضى . فانه بعد
كثير من الاخذ والرد والهجوم والدفاع بين الناحيتين ، قد
تحدد لكل من الفريقين ، وعلى الأقل فى مجال الصناع
فى انجلترا ، مجاله العملى ، فاستقر الأمر بينهما استقرارا
مقبولا ، حتى لقد اصبحت النسبة العددية بين العمال من
كلا الجنسين متراوحة فى مجال ضيق ، كما أن التغيرات
التي تصيب عمل العاملات قد نزلت الى زيادة كبيرة فى سوق
العمل وربحته عاملات الطبقة الوسطى ، ونقصان بين فى عدد
المتزوجات من العاملات .

وبالرغم من كل هذا فإن الحقيقة الواقعة هي أن البرلمان في إنجلترا كان يتدخل شيئاً بعد شيء ممعناً في فرض القيود والنظامات التي تملئ أملاء على الصناعات الهامة ، وأن تشريعاته التي تتناول المرأة مختلفة أبعد الاختلاف عن التشريعات التي تتناول الرجل . ويدل ذلك على أن هناك مصالح منفصلة ، بل ومصالح متضادة ، ذات قيمة حيوية ، قد لاحت في أفق المجتمع وإن الأحوال التي تحمل على إعطاء النساء حق الإشراف على التشريع قد قوى وزاد (١) .

بالإضافة إلى مشكلة طول يوم العمل والاحداث التشريعية التي تتناول عمل المرأة في غير ذلك من النواحي ، فإن هنالك مشكلات سياسية صرفة تؤثر في موقف النساء إزاء نظام المصنع في الحاضر أكثر مما كانت تؤثر في الماضي . فإن السوق الذي يزودنه لم يصبح السوق المحلي الذي زودنه من قبل بمصنوعاتهن ، والتجارة الخارجية وتجارة المستعمرات العظيمة ، تلك التي يقوم عليها نظام المصنع الحديث ، تتأرجح وتتذبذب بمقتضى تغير السياسة . فمشكلة حماية السوق الحرة ومشكلات المعاهدات التجارية ، والسلم والحرب ، والحصارات بحرية وبرية ، وامتداد أطراف الامبراطور وانكماشها ، وعلاقة المملكة العظمى بما يتبعها من المستعمرات ، عامة هذه المشكلات تؤثر بصورة مباشرة وسريعة في وسائل العيش لمن يعدون بعشرات الألوف من

(١) كان هذا قبل أن يعطى النساء حق الانتخاب في إنجلترا .

الناس • والاكثرية من العمال فى بعض فروع الصناعة وبخاصة صناعة القطن ، نساء ؛ ويقال ان عدد النساء اللواتى اقصين عن العمل فى خلال الحرب الاهلية الامريكية ، أكثر من عدد الرجال الذين أصابهم التعطل •

هنالك انقلاب شبيه بذلك الانقلاب الذى أحدثه نظام المصنع يكاد يأخذ بخناق تجارة الحوانيت • فان النزعة الاقتصادية الحديثة تسير ببطء نحو التبدل مما يسميه الفرنسيون الانتاج الكبير ، بما يسمونه الانتاج الصغير • فقد زادت الصعوبات التى تواجهها البيوت التجارية الصغيرة بحكم أن نسبة بيعها قليلة ، فعجزت عن منافسة البيوت الهائلة العظيمة التى تعتمد فى نجاحها على سرعة تداول السلع برأس مال كبير ، وكثرة البيع مع قلة الربح • والأسعار، اذا حالت بين صاحب الحانوت الصغير والاتصال بالمشغل مادام يبعه قليلا وبطيئا ، فانها تجزى أعظم الجزاء وتنتج أكبر الربح اذا كان البيع كبيرا وسريعا ، وبذلك يقضى على الحوانيت الصغيرة لقلة ما تباع ويحال بينها وبين الانتفاع بما يخرج المشغل لقلة ما تشتري • ذلك بأن الحوانيت الكبيرة قد تحتكر ، أو تكاد تحتكر ، فى نطاق بعينه ، ضربا كثيرة من السلع • وهى تعرضها بسعر مخفض ، وفى أشكال ونماذج مختلفة • ثم تعمل على تنمية عملها وتجارها بان تجمع فى بنائها بين مصنوعات مختلفة متباينة تؤدى أغراضا واسعة • وما يحدث هذا النظام من الرضا والتقبل عند المستهلك

الذى يرضيه رأى تلك المجموعة المتنوعة من السلع التى يحتاج إليها ، يضى على الحوائت الكبيرة ميزة فى منافسة الحوائت الصغيرة التى تكتفى بسلع قليلة .

ان نشوء هذا النظام التنويعى فى عرض السلع ، ولاسيما منذ صدور قانون المسئولية المحدودة فى سنة ١٨٦٢ فى انجلترا ، قد هيا الفرصة لتأسيس مثل هذه البيوت الضخمة بينما تجد أن البخار ونظام طرود البريد قد جعل من السهل الهين على مثل هذه البيوت أن تمد منافستها الى عواصم المديریات والى القرى . بذلك نرى أن الصناعة قد أخذت تتركز ، فأصبح كثيرون ممن كانوا أصحاب حوائت مستقلين ، مأجورين بمرتبات ، فانضموا الى صفوف العمال الذين جندهم أصحاب تلك الأعمال الواسعة .

كان هذا التغير لزاما ، لأنه نتاج أسباب اقتصادية قاهرة . ولقد كان ذا فائدة فى مجموعته ، ترجيحاً أو تغليبا . ولكنه الى جانب هذا لا ينكر أحد أن له آثارا رجعية ذات بال ، وأنه قد جر معه جملة كبيرة من الآلام الممضة لضرورة لها . وكان للكاتب أميل زولا خطر السبق فى احدى رواياته القوية الصادقة ، الى الكشف بوضوح وجلاء عن حقيقة تلك المعركة ، معركة اليأس والجهاد الفاشيل ، التى قامت بين صاحب الحانوت الصغير ، ونده العملاق الكبير صاحب البيت التجارى ، وضغطه عليه ومطاردته له . ولن يضل باحث فيه فراهة النظر وعمق الفكر ، عن ان يدرك مقدار مافى هذا

التغيير من أثر الثورة الانقلابية في حالات الصناعة • فان الطرق التى سلكت من قبل قد سدت وشوّهت الى درجة كبيرة • وان عديدا وافرا ممن كانوا يسلكونها قد اضطروا ، بعد سنين انفقوها عاملين بأمانة وجهد ، أن يبحثوا عن موارد أخرى للعمل ، وقد نزل معظم الضغط على نفس تلك الطبقة التى تنزل مقتضيات العادة والاعتياد من حيواتهم وسعادتهم اسمى منزل •

لقد كان هذا الانقلاب بالغا منتهى الضرر بالمرأة ، اذا نحن بحثنا مؤتمين باعتبار من الاعتبارات المهمة • ذلك بأنه خلق نزعة هى على خط مستقيم مناقضة للنزعة التى تنشأ من انتشار استعمال الآلات • فان القوة البدنية ذات قيمة كبيرة فى عمل البيوت التجارية الضخمة مما هى فى الحوانيت الصغيرة التى حلت هذه محلها • وبهذا طردت المرأة الى حد ما من مجال العمل الذى لاح كأنه محلها المختار ، وظهرت جماعات كبيرة من الشبان على مناضد البيع فى البيوت الكبيرة يقيسون الاشرطة ويقصون لفائف الحرير !!!

— ٥ —

أثر هذا الانقلاب فى تقوية قضية القائلين بالغاء القيود التشريعية التى تعوق النساء عن الحصول على وظائف أو أعمال • كذلك أثر تأثيرا كبيرا فى عدد النساء ونسبتهن فى الصناعات القديمة ، كما بذلت جهود حقه ، سواء من طريق التشريع أم من طريق البذل الشخصى ، لتوسيع

دائرتهم فى العمل • ففتحت لهن أبواب العمل فى مكاتب البريد والبرق ومصارف التوفير وغيرها من الوظائف الصغيرة فى الخدمة المدنية كالهيئات البلدية وإدارة سكك الحديد • كذلك تضاعف فيهن عدد المؤلفات والمستغلات بالصحافة وفى جميع ميادين الفن • بل انهن قد احتكرن على وجه التقريب مهنة الكتابة على الآلات الكاتبة ، وهى مهنة يظهر أن أصابعهن المرنة قد خلقت لها • ومنهن من وجدن عيشهن على المسرح أو فى قاعة المحاضرة ، وقليلات منهن برزن فى فن التفتيش والمراقبة وبضعة من الوظائف الإدارية التى تحتاج الى مهارة خاصة • ولقد حاول بعضهن أن يجدد فى الكنيسة الأنغليكانية نظام الاخوة على النمط الذى عرف به فى القرون الوسطى وكان يأوى الغالبية العظمى من النساء غير المتزوجات ، ولكن التجربة فشلت لأن عصرها قد فات وانقضى أجله • وفى الولايات المتحدة سمح للمرأة أن تزاوّل المهن القانونية ، فاصبح فيها عدد كبير من المحاميات ، وفى سنة ١٨٧٩ سن قانون يخول للمحاميات رفع القضايا أمام المحكمة العليا • على أن كثيرا من البلدان الأوروبية قد رفضن الجرى على هذا المثل ، بالرغم من أن روسيا كانت منذ زمان مضى قد أجازت للنساء أن يكن محاميات ، وبالرغم من أن السويد ورومانيا قد أظهرتا استعدادا لاتباع خطوات أمريكا •

أما مافى المرأة من الاستعداد الفطرى لخدمة المرضى ، فظاهرة اعترف بها اعترافا كاملا ذلك بان المرأة اسرع شعورا

وأدق ملاحظة في ادراك أتفه التغيرات ، وهى صفة من أخص الصفات اللازمة فى التمريض بنجاح ، وهى تتفوق على الرجل فى هذه الناحية تفوقا لا مرأ فيه • ولكن العصر الحديث قد حور بعلمه وفنه كثيرا من صفات هذه المهنة اذ أصبحت علما يدرس وفنا يلقن ، فارتفعت الى درجة كبيرة من المقدرة والامتياز ، لخير طرفى الجمعية ، الرجل والمرأة ، على السواء •

وفى سنة ١٨٦٨ صدر قانون فتح باب الصيدلة أمام المرأة • وبعد عهد طويل من الجهاد استطعن أن يلجن باب الطب فيصرن طبيبات • وقد سبقت الولايات المتحدة فى ذلك انجلترا بل وأوربا جميعها فى ذلك ، فكان لديها من الطبيبات عدد كبير شغلن وظائف طبية ذات مكانة كبرى قبل أن تفكر أى من الامم الأوروبية فى ذلك • وقد سبقت جامعة ادنبره غيرها من الجامعات فى انجلترا فى هذا المضمار • وفى سنة ١٨٧٤ اسست مدرسة طبية للنساء فى لندن • وفى سنة ١٨٧٧ ابيح لهن حضور المحاضرات التمريضية فى مستشفى لندن • وفى سنة ١٨٧٨ صدر قرار تكميلى أباح لجامعة لندن أن تعطى درجات علمية للنساء من جميع كلياتها بما فيها كلية الطب • ولقد تبع جامعة لندن غيرها من معاهد العلم ، وعند نهاية سنة ١٨٩٥ كان فى انجلترا ٢٦٤ طيبة متهنات كما يثبت من السجل الطبى البريطانى •

ومن الغالب ان لا يصبح الطبيبات منافسات قويات للأطباء فى العمل التطبيعى ، ولكن هنالك فروعاً من التطبيق

النسوى تفضل خدمتهن فيها على خدمة الرجال عادة •
ولا شك في أن العبقريّة والنبوغ في المرأة لا بد من أن تلاحظ
وتحتل مكاتنتها في عالم العمل ، كما هي الحال تماما في الرجال •
ولقد فتح في الهند مجال واسع للطبيبات يتصلن من طريقه
بملايين من نساء تلك البلاد التي يحرم فيها ، حتى في عصر
انتشار الأمراض الحادة بالأمها الشديدة ، أن يتصل الأطباء
بالمريضات بأى حال من الأحوال • ولو اتيح لتلك البلاد
أن تقبل فكرة تخريج الطبيبات في معاهدها ليكن رسولات
العلم الى مناطق الألم والمرض ، اذن لأدين للانسانية خدمة
لا تقدر بقيمة •

لم تتفرد الأمم الانجلوسكسونية بالسير في هذه الطريق •
فان جامعة زوريخ لها فضل كبير في السبق الى أن تصبح
مركزا للتعليم النسوى في الطب في طور مبكر من اطوار
هذه الحركة الارتقائية • ولكل من فرنسا وسويسرا وبلجيكا
وايطاليا طبيباتها • بل أن سيدة من الفضليات كانت استاذة
الباتولوجيا في جامعة پيزا • أما روسيا فقد مر بها عهد كانت
فيه على رأس الممالك التي مدت يدها بسخاء وكرم الى
أولياكن اللواتى أردن الالتحاق بالمهن الطبية وغيرها •
ولكن في أثناء الموجة الرجعية التي اجتاحت تلك البلاد
في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فقد الروسيات كل
هذه الخصائص • وفي سنة ١٨٧٦ حرم النساء بمقتضى مرسوم
امبراطورى من مزاوله المحاماة ، وبعد ذلك بقليل حرم من

معالجة التعليم في المعاهد العليا ، ولم يسمح لامرأة بأن تزاوّل مهنة الطب في جميع أنحاء روسيا •

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذت مهنة التعليم تحتل مكانة سامية بين المهن المدنية ، وزاد عدد النساء اللاتى يزاولنها حتى أصبح عددهن فيها كبيرا ، وبرزن في التعليم تبريزاً جعل لهن مكاناً ملحوظاً ، سواء أمن ناحية الكفاية ، أم من ناحية المرتبات التى يتقاضينها • وبالرغم من أن التغييرات التى أصابت تعليم الصبيان كانت كبيرة وعلى نطاق واسع ، فانها كانت أقل أهمية من تلك التى أصابت تعليم البنات فى السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر • فقد شاطر البنات الصبيان مزايا التعليم التى قررت بمقتضى قانون التربية الذى صدر فى إنجلترا سنة ١٨٧٠ ، وبخاصة عند تأسيس المدارس المتوسطة ومدارس الفنون والتعليم الصناعى الفنى ؛ ثم قانون التعليم الثانوى فى ارلندا ، وتحسين حال المدارس الاختيارية الذى أتى على أثر المنافسة التى قامت بين المدارس الداخلية ، والخضوع للتفتيش الحكومى عليها ، وفتح الاعانات لها بنسبة النتائج التعليمية • أما المدارس العليا وكليات السيدات التى أسست فى أنحاء متفرقة من المملكة البريطانية ، فقد أتاحت لآلاف عديدة من النساء من أهل الطبقتين العليا والوسطى ، قدراً من التعليم أسمى بكثير من التعليم الذى ناله أمهاتهن ، وخرجت معلمات لمزاولة التعليم فى معاهد الدنيا وللأسر الخاصة أرقى من أنصاف المتعلّقات اللاتى زاولن هذه الحرف من قبل •

ان التعليم السنوى العالى فى انجلترا قد توسع فيه ونظمت دراسته ورسمت قواعده حتى لقد أصبح ثمانين فى المئة من جامعات بريطانيا العظمى ، وكذلك الجامعة الملكية بايرلندا ، من معاهد العلم التى تعنى بتعليم النساء وتمنحهن الشهادات والدرجات أما جامعتا اوكسفورد وكمبردج ، وكلاهما من الجامعات التى أيدها النساء بالهن فى العصور الأولى ، قد ظلتا فى أواخر القرن التاسع عشر متحرجتين عن أن تمنح درجاتهما وجوائزهما للنساء . ولكن بالرغم من أن تزمت بعض رجال الكنيسة أمثال بارجون Burgon ولدون Liddon وپوسى Pusey ، فقد سمح للنساء أن يحضرن حلقات دروسهم . وان افتتاح كليات هتشين Hitchinn وجيرتون Gurton ونيونهام Newnham وسومرفيل Somerville والسماح للنساء بشهود المحاضرات فى الجامعات الكبرى ، وأداء امتحانات الدرجات والشرف والامتحانات الموضعية التى تنظمها الجامعات فى طول البلاد وعرضها ، وتلقين العلوم الطبيعية والرياضية ، كل ذلك كان من شأنه أن ينشر المعرفة بين النساء وان يزيد من خطرهن سواء أكن من أهل الطبقة العليا أم المتوسطة . وان قليلا جدا من الاحداث العظمى فى تاريخ الحضارة الانجليزية ، ما يميز فتح أبواب الجامعات للنساء ، وقبولهن عضوات فى حركة الفكر والثقافة . أما ماخافه بعض المعارضين من فتح أبواب معاهد العلم للنساء ، مثل اخوف من الفوضى فى النظام والأخلاق ، فاشياء لم يقيم

عليها من دليل ، بل كانت مخاوف وهمية ، كما أنه لم تقم من
حاجة الى تغيير كبير في برامج الدرس •

على أن هذه الحركة الارتقائية لم تقتصر على انجلترا
وحدها • ففي بلاد اسكانديناوة وايطاليا وسويسرا
والولايات المتحدة والمستعمرات البريطانية ، فتحت الجامعات
أبوابها للنساء ، وبذلت جهود الجبارة في سبيل رفع مستوى
تعليمهن •

كانت صوفيا كوفالفسكى Sophie Kovalewsky التي
أثارت الترجمة عن حياتها اعجاب القراء وبعثت فيهم احساسا
بالاكبار والاحلال ، استاذ الرياضيات العليا في جامعة
استوكولم • على ان البنات كن قد اخرجن من حظيرة التعليم
بمقتضى الاصلاحات التي وضعتها حكومة الثورة في فرنسا
وفي عصر نابوليون الأول • وقد اعتقد نابوليون بل استمسك
بفكرة أن تعليم النساء لا ينبغي أن يتعدى الأوليات ولكن
قوانين ١٨٥٠ و ١٨٦٧ قد أباحا تأسيس مدارس ابتدائية
لتعليمهن في كل مركز من المراكز الكبيرة في فرنسا ، كما
قصد قانون ١٨٨٢ الى أن يكون تعليم البنات اجباريا • وفي
عصر نابوليون الثالث أسست في باريس مدارس لتعليمهن
المهن ، وأتيح لهذه المدارس أن تتبع في تعليمها برامج الكوليج
دى فرانس Collège de France وعند سقوط الامبراطورية
أتيح لهن أن يحملن شهادات الجامعات في الآداب
والعلوم والطب •

ظلت المانيا حتى عهد قريب متخلفة عن أكثر الممالك الأوروبية في التعليم العالي للمرأة ، ومضت الحكومة الروسية خاصة تقاوم كل حركة ترمى الى اعطائها حق الدخول في الجامعات والترخيص لها بالاشتغال بمهنة الطب . ففى أواخر القرن التاسع عشر كان في روسيا ٢٠٩ مدرسة ابتدائية للبنات لم يكن منها سوى ١٧ مدرسة لها ناظرات والبقية نظارا ، كما أن فكرة الطبقة الحاكمة والجامعات كانت معادية لكل حركة قصد بها التسوية بين الجنسين في التعليم العالي والثقافة العامة كذلك صدر عن الروح البروسى قانون في سنة ١٨٥٠ حظر على النساء أن يكن أعضاء أو يشهدن اجتماعات كل الجمعيات المشتغلة بالسياسة أو التى تناقش في المسائل السياسية . ولقد كان في النمسا وفي بقية الدول الالمانية مثل هذا القانون ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على الختام حتى نهضت المانيا نهضة كبيرة في التعليم النسوى وتبعتها النمسا .

على أن العناية بأمر التعليم النسوى في انجلترا قد بز من جميع النواحي امثاله في القارة ، كما أن نساء انجلترا قد كان لهن السبق الى العلم والى الأدب والفنون على جميع نساء بقية البلدان الاوروبية . ولقد ظن أن التعليم قد يؤثر على الحالة الزوجية وانه قد يجعلها أقل صفاء وأقل سعادة ، لأن نسبة اللواتى سيلجأن الى الزواج باعتباره ملجأهن الأخير وملاذهن الاقتصادى سوف يقل ، أو لأن الرجل والمرأة يكونان أشد صلة وامتن أسرة اذا ربطت بينهما مصالح

جوهريّة أو جمعت بينهما فكرات تميل الى الكظم والكآبة .
ولكن الواقع أن تعليم المرأة قد دل على نقيض ذلك تماما .
كذلك الانقسامات الكبيرة التي تفصل بين الرجل والمرأة
من حيث الرأى والميول ، وكانت سببا فى شقاق مشاهد جد
المشاهدة فى كثير من اسر القارة الاوروية ، قد قلت أسبابه
فى انجلترا أو هى كادت تختفى كلية ، وأخذت روح من التسمح
والتساهل فى النشوء حالة محل روح التزمت القديم . ولقد
دلت التجربة على ان الخوف من أن المرأة المتعلمة قد تهمل
شئون بيتها ، انما هو خوف لا محل له ولا سبب وانه الى
جانب امرأة واحدة تهمل شئون بيتها لسبب انها متعلمة ،
مئات يهملنها بسبب الاستهانة أو الفجور . أما ما لوحظ
فى بعض النساء المتعلّمات من الخذلقة والكبر والاسراف
فى الذوق وفى الآراء ، فلم تكن أشياء غير طبيعية بحكم أن
أمثال أولياء قد وجدن أنفسهن مهملات مقصيات وانهن
فى حرب دائمة مع أوضاع الجمعية معرضات الى وابل من
الاستهزاء والسخرية . فلما أن تغير الوضع وأصبح ما ليس
طبيعيا طبيعيا ، وأعترف بما لم يكن يعترف به فى أوساط
الجمعية ، امحت كل أوجه الشذوذ واعتدل مزاج المرأة المتعلمة
وأحست بانها فى جمعية هى منها واليها .

خيف من شر آخر ظن أنه أنكى من سابقه وأدهى ، ذلك
هو القول بأن نهج التنافس العقلى قد يفصح عن صدع
كبير بين استعداد الرجل واستعداد المرأة ، بمقتضى ما فى

تكوين المرأة من رخاوة ورقة • ولكن أولئك الذين قاموا
على التعليم النسوى العالى فى انجلترا لم يغفلوا هذا الخطر ،
فجهدوا بحذق وكافحوا بمهارة فنجحوا فى التخلص منه وكان
من نتاج جهدهم أن وقع تغير كبير فى الأمزجة والأذواق ،
تقبلته الأمة من غير أن تشعر بأنه وقع بالفعل • فان جمال
الصحة الكاملة ومرح الروح قد حلا تدرجا محل الرقة المريضة
والضعف والترهل وانهلال الأعصاب ، تلك التى كانت مثال
الجمال فى القرن الثامن عشر • وأصبحت الملابس أكثر اتفاقا
ومقتضيات الصحة ، والمرانة الرياضية من مستلزمات الحياة ،
وعكف النساء على تضيئة أوقات من المرح والتسلية تستخف
الروح وتشحذ الذهن • ولقد صحب هذا حركة التقدم
الذهنى فيهن ، حتى لقد قال الاستاذ هكسلى انه فى خلال
خمسین السنة التى توسطت القرن التاسع عشر طفر متوسط
القوى البدنية فى النساء الانجليزيات طفرة كبيرة وبخاصة
بين الطبقات العليا والطبقات المتوسطة • ولقد كان التعليم
نعمة عظمت للنساء غير المتزوجات وهن كثر ، سواء أكن
غنيات أم فقيرات • وبالرغم من أن تعليمهن لم يبلغ مبلغ
المثل الأعلى ، فانه على الأقل قد زودهن بسلاح يواجهن به
معركة الحياة • فقد زاد الى كفايتهن ، وأوسع من نظرتهم
فى الحياة وجعلهن أوصل بحاجات ومضالح لم يكن لهن بها
صلة ، وغرس فيهن خلقا جديدا ، قلما تعجز عن أن تفرسه
قيود النظام الذى تفرضه العادة المتواترة المركزة فى عمل بعينه •

بالإضافة الى ما تقدم ، اقول انه يتعذر على باحث لبق أن يفوته ذلك التغير الكبير الذى وقع فى الأوساط الانجليزية العليا فى خلال الجيل الأخير من القرن التاسع عشر خاصة بالأوضاع الاجتماعية المتفق على انها الحدود التى لا يسمح للمرأة أن تتعدها من حيث العمل فى هذه الدنيا • فان الفكرة الأغريقية القديمة ، فكرة ان عمل المرأة ينبغى أن يقتصر على المنزل ولا يتجاوزه وهى التى ظلت الى اواخر القرن التاسع عشر رائجة فى المانيا الى حد ما ، قد انتفت وتركت وزال أثرها فى بريطانيا ، وأصبح عدد من السيدات البريطانيات يتناولن من الأعمال ويؤدين بنشاط وأمانة خدمات للمجتمع كذلك التى يؤديها متوسطو الرجال • ولقد تناول هذا التغير كل ميادين العمل والتسلية والعادات •

جرت العادة فى بريطانيا حتى اواخر القرن التاسع عشر ، أن لا يؤذن لسيدة أن تمشى فى شوارع لندن بغير حارس ، أو تنتقل الا فى عربة مقفلة أو تسافر الا تحت ضغط اعنى الظروف ، ولا يؤذن لها بذلك الا اذا كانت برفقة رجل يؤتمن عليها • فكيف ينظر أهل ذلك الزمن لو انهم عادوا الينا ثانية ورأوا سيدات وشابات يرتمين فى احضان المجتمع الصاحب ويشهدن حفلات كرة القدم كالشباب ، ويختلطن بالطلاب فى الجامعات وفى قاعات المحاضرة والامتحانات العامة ، وانهن يخطبن الجماهير من فوق المنابر ، ويدبرن الحركات السياسية والاجتماعية ، ويتسلقن جبال الألب ، ويشاركن فى الألعاب

الرياضية ، ويسافرون بغير رفيق ، فيطفن أنحاء العالم المتمدين ،
ويدرسن ما يشأن بملء حريتهن ويناقشن في أخص المسائل
التي تقوم عليها دعائم الدين والعلم والفلسفة ؟ الراجح أن
أول ما يلفتهم هو مرأى ذلك المخلوق الذى عرفوه مشاكسا
صاخبا ، قد ارتد كائنا وديعا سهل القياد هادئا ، وليس بين
المرأة التي كن يعرفنها في زمانهم وبينه الا سمات فرضتها
عليه الطبيعة فرضا .

ان الأسباب التي أدت الى هذا التغير الظاهر وما ترتب
عليها من النتائج ، قد تفتح أمامنا ميدانا فسيحا للبحث ،
لا ينبغي أن نمر به غير آبهين . فان البعض يرون انه قد لا يقل
أثره عن احداث ثورة أدبية في اخلاق المرأة . أما أن تغايرا
قد وقع بالفعل ، فذلك ما لا يمكن انكاره أو اخفاء أثره .
ولكن يظهر لى أن مداه قد بولغ فيه كثيرا .

ان الطبيعة قد وضعت من الفوارق بين الرجل والمرأة ،
مالا يستطاع تخطيه أو التغلب عليه . وفي خلال كل الأعصر
تطلعت المرأة الى أن تكون أما أو زوجة ، وكان ذلك اسمى
منزلة تتطلع اليها ، وسيظل حالها على هذا خلال كل الأعصر
المقبلة ، تنقل معها جيلا بعد جيل أثبت المنافع وأرق العواطف .
وانا لنرى أن التغير كان أظهر وأجلى في مجال الأخلاق
الرقيقة ، وان بعض ظلال من الخلق النسوى قد أخذت تضمحل
وتحول ، في حين أن غيرها مضى يعمق ويقوى . والغالب
أن النساء سوف يمضين في المستقبل ، الطبيات والحيثات ،

الأنايات والغيريات ، محتفظات بنفس النسبة التى لهذه
 الصفات من أنفسهن ، ولكن صفاتهن ، الطيبة والخبيثة ،
 سوف تختلط فى نفسيتهن بصورة مختلفة عما هى عليه .
 قد نجد فى الطراز النسوى الحديث قدرا أكبر من راحة
 الحكم وضبط النفس والشجاعة والاستقلال ، ومدى أوسع
 من العواطف والانجذابات والمصالح المادية ، أكثر مما كان
 ذلك فى غابر الأيام . ستصبح المرأة أكثر شكا وأقل سذاجة
 وتطوحا مع الاساطير والأوهام ، ولكن مع ذلك ستكون
 أبرد طبيعة وأشد صلابة . قد يحتمل أن لا تقل غيريتها ،
 ولكن سيكون منشؤها أرجع الى حب الواجب والعادة الثابتة .
 بيد أن العناصر الانفعالية والدفعية والخيالية فى الخلق ،
 بما يعتورها من الأخطار والمحاسن ، سوف تصبح أقل بروزا
 فى صفاتها . أما فى الطبقات الطيبة ، فقد يقع أن تكون قوة
 الاحساس بالواجب ، موجهة الى غايتها باستنارة الحكم
 ورجاحة النظر ، هى القوة المسيرة ، وان الحياة بذلك ستضحى
 ألع وأنور باتساع دائرة المصالح الغيرية والتضحية واللذائذ
 المفيدة . أما فى الطبقات التى هى أدنى ، فلا شك فى أن
 الشهوة غير المحكومة بالعقل ستكون أضيق دائرة وأقل أثرا
 فى الحياة ، ولكن الى جانب هذا سيصبح الدين والقيود
 الاجتماعية أضعف وأشد تراخيا . كذلك سنجد أن الرغبة
 فى الأشياء المثيرة وحب الجدة ، تلك التى خلقتها حياة مزدحمة
 متدافعة بالمناكب ، سوف تزيد ، وأن حب الدنيويات ستلبسه
 صورة هى الى القساوة والى الدنيات أقرب شىء . وان قليلا

من أشياء هذه الحياة ما يبد قباحة وبشاعة ، انهماك انسان
لم يتجاوز الثامنة عشرة ، فى دنيويات يتطلع من طريق مافيهما
من مباحج ومسررات الى انتهاز الفرصة التى تواتيه ، وتقدير
الدخل والخرج والتشاريف والمراتب وما مضى وما يتوقع ،
كل ذلك بعين المدرة اللبق والمنطيق المتزن ، العالم بأن الكبوة
قد تكسر ركبتيه •

الفصل الثالث

الولاية على قانون الاطفال - شرائع تتعلق بالمرأة المتزوجة -
ملك المرأة - الارث بلا وصية - حقوق الوالدات - حق
الانتخاب للمرأة - قدرة المرأة الادارية - السياسة وخلق المرأة
النساء المتزوجات - التأثير الاكليروسى - النزعات نحو حق
المرأة فى الانتخاب - الحالة فى أواخر القرن التاسع

نابليون : مدام - انى لا أحب أن تتمحك المرأة
فى السياسة .

أرملة كوندورسيه - لك الحق أيها الجنرال :
ولكن من الطبيعى فى بلد تجتز فيه رءوس النساء ،
أن يكون لهن الحق فى أن يسألن عن السبب فى ذلك .

- ١ -

كان من الضرورى أن تؤدى التغيرات التى تربت على
ذيوخ التعليم ، والظروف التى احاطت بالمرأة ومستوى
الأخلاق الذى سمت اليه ، تلك الظواهر التى كانت تتاجا
للروح التى سيطرت على القرن التاسع عشر ، الى أن تتحرك
عواطف المرأة فتأخذ حياتها سمتا جديدا وأن تزيد عنايتها
بالامور السياسية . ولا شك فى أنه قد مرت عهود قبل القرن
التاسع عشر ، نبث فيها ميل نحو السياسة عند المرأة ، بل ان
أهمية السياسة عندها فى ذلك الوقت قد بلغت من الأثر
فى نفسياتها مبلغا عظيما . ولقد وصف الكاتب الانجليزى

المعروف مستر « أديسون » تلك الانقسامات الحزبية التي تولتها روح من العنف والشدة قلما يتصور قدره ، والتي وقعت في اواخر عهد الملكة « آن » . لقد كان من شأن تلك الانقسامات أن تنشق الجمعية النسوية شيئا وفرقا . ولم يشهد تاريخ الانجليز عهدا تأثرت فيه ماجريات الأحوال السياسية بمثل ما تأثرت اذ ذاك بما تركت جهود المرأة فيها من طابع ثابت بالتفافهن من حول العرش والدفاع عن وجهة نظرهن دفاع النمرات . واذا تتبع الانسان مجرى التاريخ بعد ذلك العهد ، فلن يفوته أن يرمق بعين الاكبار نساء من المبرزات الضاربات أرقى المثل لجميع الناس ، مثل جيورجيانا دوقة ديفونشر ، أو مسز كرو أو مسز ماكولى أو اللادى جيرسى أو اللادى هولند أو مس مارتينو . غير أن السياسة عند المرأة في أواخر القرن التاسع عشر قد اتسع أفقها اتساعا عظيما بل ان طابعها قد اختلف عما كان عليه من قبل ، فنشأ بذلك مشكلات نسوية ، يزيد اتصالها بالسياسة أو يقل ، وبرزت في أفق الحياة الانجليزية .

- ٢ -

عندما أخذت العناية بالتعليم تزداد وتعظم ، وبدا كأن مدأ عظيما من القوة الارتقائية من الوجهة التعليمية ، يحتاج كل المثل القديمة في انجلترا وأكثر دول القارة الأوروبية ، لم تغفل المرأة بما فيها من كريم الأحاسيس وقوة التطلع الى أن نسبة كبيرة من المدارس الاعدادية الحرة ، وهى من ركائز

الرقى الفكرى فى القرن التاسع عشر ، انما قد أقيمت فى ذلك العهد الذى يوصف الآن بأنه من أقل العهود استنارة ، لتعليم أولاد « المحررين » ^(١) ، أو تعليم كل الناشئين الذين يولدون فى أبرشية ما ، وكفالة الأولاد الفقراء وتعليمهم وتدريبهم على الحياة بغير أجر أو تحمل أى عبء مالى ، وأن الفوائد التى ترتبت على هذه الحركة الارتقائية الكبيرة والمزايا التى نتجت عنها ، قد اختص بها الأولاد دون البنات . ومر عهد عمدت فيه كل دولة من الدول ، وبخاصة بريطانيا ، الى أن تهب للأولاد فرصة التعليم المجانى بكل درجاته . فكان من نتائج ذلك أن قويت عند المرأة نزعة التطلع الى دخول الجامعات والمعاهد الأخرى . وان تلح فى التمتع بمساعدة الحكومات لها فى هذه الناحية .

ان جميع هذه الحالات تظهرنا على حقيقة واقعة فى جميع المجتمعات الإنسانية . فليس من الطبيعى أن يمضى نصف الأمة فى سبيل من الرقى والاستنارة يكسبه فرصة أعلى فى الحياة على النصف الآخر من غير أن يتطلع النصف المعطل عن الرقى الى العمل على اللحاق بنظيره . على أن مثل هذه الظاهرات هى فى الواقع ضرورية ومحتومة بقدر ما هى طبيعية . فان للحالات النفسية فى ذلك أثرها . ونزعة الانسان فى الحياة ، هى عند الرجل كما هى عند المرأة ، فى مستوى

(١) لاسم أطلق على الزراع والعمال بعد سقوط النظام الاقطاعى .

واحد من حيث التأثير في رسم الاتجاهات التي تسير فيها كل جماعة من الجماعات •

وليس من شك في أن الذين يقولون ان المرأة قد خلقت للبيت ، لا يفتنون عادة الى ان الرجل قد خلق أول ما خلق زوجا لافردا ، أى أنه لا بد من أن يعيش في أسرة ثم في عائلة ثم في عشيرة ثم في شعب أو أمة • وان من أوجب الأشياء لضمان حياة هذه المجتمعات على اختلاف ضروبها أن يتساوى النصفان ، المرأة والرجل ، في تحمل المسؤوليات والاستمتاع بتطبيقات الحياة ، وأن يسيرا معا مقتضى ما تتطلب الحياة من ضرورات لتتم صورة التكافل الاجتماعى بين الزوجين في كل نواحي الحياة فاذا تخلفت المرأة عن الرجل في ميدان من ميادين الحياة ، سواء أكان ذلك الميدان عقليا أو اتاجيا ، كان ذلك من أخص ما يفسد رابطة التكافل التي هى العقدة الأساسية في كل مجتمع انساني •

ان الذين يذهبون مذهب ان المرأة لم تخلق الا للبيت ، لا يستطيعون أن يفسروا ذلك القول الا مأسورين بفكرة أن المرأة ليس لها أن تلاحق الرجل في ميادين الحياة • وماذا يكون شأن أولئك الذين يردون المرأة هذا المرد السحيق ، لو أنهم علموا أن المرأة ينبغي لها لكى تكون عضوا صالحا في مجتمع ديمقراطى ، أن تستقل فكرا وعملا ونزعة ، وأن تشعر بأنها مخلوق له حق كل المخلوقات في الحياة بمتنوع

صورها ، ولها أن تعمل وتكسب عيشها وأن تستقل بكل مرافق حياتها ، وان مجتمعا لا تسود فيه هذه الصورة العالية من الحياة ، لمجتمع فاسد من أصوله ، عاجز عن الرقى ، بالغ منتهى ما يصل اليه الانحلال في أبشع صوره .

— ٣ —

حدث أيضا أن تعاظمت عند المرأة ، طوعا لموجة التقدم ووفقا لسير الارتقاء الاجتماعى ، نزعة الاستقلال ، فكان من الطبيعى أن لا تتعامى عن التشريعات المجحفة والتفضيل الشائن الذى نصت عليه القوانين الانجليزية ، ورفعت به منزلة الرجل على المرأة درجات كبيرة ، وأثقلتها بقيود وقيدتها بحرمانات أبهظتها وأذلتها . ومن الأمثلة على ذلك انه حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، كان من حقوق الزوج القانونية ، مهما كان فى ذلك الزوج من سوء الخلق وحدة الطبع واسفاف النزعات ، أن يحول بين زوجه مهما كانت ورعة تقية صالحة ، وبين الاتصال بأولادها . وكان من حقه المطلق الذى لا يناقش ولا يمارى فيه أن ينتزع منها أولادها ، وهى ما تزال حية ترزق ، وأن يعهد بهم الى محظية أو خلية . وظل الحال فى انجلترا على ذلك حتى سنة ١٨٣٩ اذ صدر قانون حضانة الأولاد فجعل للمرأة حق الحضانة الى سن السابعة ، ثم أباح لها الاتصال بهم بعد ذلك ، مالم تكن قد سافحت وثبت عليها السفاح . وصدر بعد ذلك قانون

في سنة ١٨٧٣ جعل للمحاكم الحق في ظروف معينة أن تحكم للمرأة بحضانة أولادها حتى يبلغوا السادسة عشرة من عمرهم . ولكن فيما عدا هذين الاستثناءين ، وما لم تتدخل المحاكم ، وذلك في بعض ظروف شاذة ونادرة ، كانت ولاية الأب على أولاده شاملة كاملة ، بل قد لا نبالغ اذا قلنا انها كانت مطلقة قريبة من الاستبداد المطلق .

وأنتكى من ذلك كله وأمعن في النيل من كرامة المرأة مهما كانت فاضلة ، انه حتى بعد موت الأب ، لا تنتقل حضانة الأولاد اليها . فقد كان من حقه أن يهملها ويوصى بحضانة أولاده الى غيرها ، من غير أن يبين لذلك عن سبب ومن غير أن يرجع اليها في أى شيء من ذلك . وحتى اذا مات ولم يوص بشيء يتعلق بحضانة أولاده ، فإن من حق أقرب أهله من العصب أن يستعمل نفس الحق الذي لم يشأ الأب المتوفى أن يستعمله في وصيته ويقصى الام عن أولادها والاولاد عن أمهم . فهل كان شيء أشد من هذا بغيا ونزولا بالمرأة الى الدرك الأسفل من الحطة والمهانة ؟

لم يبلغ الانجليز المبلغ الذى وصله الاسلام من حيث حق المرأة في حضانة أولادها الا سنة ١٨٨٦ اذ صدر قانون جعل لها الحق الطبيعى في حضانة أولادها بعد موت زوجها . أما سلطة الرجل حال حياته فلم يمسسها هذا القانون ولا تعرض لها بشيء ، بل احتفظ له بحق أن يضم اليها

ويشرك معها من يشاء ويجعل له على الأولاد نفس الولاية
التي لها بعد موته • ولكن أقل ما في ذلك التشريع من التخفيف
عن أثقال الامهات ان اعترف للزوجة بحق الحضانة ، ولم
يكن يعترف لها بشيء من ذلك قبل •

— ٤ —

ولم يكن مركز المرأة في انجلترا من حيث أن لها حق
الملك ، بأفضل من حيث هي أم • فقد قيدت ملكية المرأة
للعقار والمنقول بقيود شديدة قاسية ، أثرت في مركزها
الاجتماعي كما أثرت في نفسياتها وفي مزاجها تأثيرا عنيفا قاسيا •
فقبل سنة ١٨٥٧ كان من حق الرجل أن يهجر زوجته ، وأن
يتركها بغير ما يقيتها أو يقيم حياتها هي وأولادها منه ، وكان من
حقه فوق ذلك أن يعود اليها بمحض اختياره ويستولي على
كل مملوكاتها بالغة ما بلغت قيمتها وأن يبيع من ذلك ما يشاء
بالثمن الذي يشاء ، ثم له بعد ذلك أن يهجرها وينبذها ،
ثم يعيد عليها الكرة كما فعل أولا فيجردها من جميع ما تملك
ثم يهجرها مرارا وتكرارا على نفس الصورة وبذات الاسلوب ،
وليس لها من قانون يحميها أو شريعة تقتض لها •

وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١٨٥٧ اذ دخلت مادة
في القانون الذي أنشأ محاكم الطلاق حمت لأول مرة في تاريخ
انجلترا مملوكات المرأة المهجورة ، وصدر قانون آخر
في سنة ١٨٨٦ قرر لها حق الارتداد على زوجها بما يتصرف

فيه من أموالها اذا هجرها • وتلك حماية ناقصة بل حماية
صورية ، لأنه فيما عدا حالة الهجران وحدها ، فقد ظل للزوج
الحق المطلق فى التصرف فى مملوكات زوجه وفى كل ما تكسب
أو تربح أو ترث ، وعلى الجملة فى جميع ما يتناول حق الملك
من الأشياء •

من الحق أن القانون كان يجبره على أن ينفق عليها ويقيم
حياتها ، ولكن ذلك الأمر كان من الهين أن ينزل فى حالات
كثيرة الى سد الرmq وستر العورة ، فضلا عن أن ذلك الوضع
قد أحدث حالة اجتماعية خطيرة فى أواخر القرن التاسع عشر
فى انجلترا وفى غيرها من الممالك التى سنت شرائع تشبه
شرائع الانجليز • فقد عاش الأزواج عالة على الزوجات
المثريات وناموا مستظلين بالبطالة والكسل فى حمى القانون
والشريعة ، متصرفين فى ما يملكن بمحض ارادتهم وعلى غير
ارادتهن ، منفقين أموالهن فى الدساكر الليلية وفى أحضان
المومسات • كل هذا بحماية من القانون واجازة من شرائع
تلك البلاد •

وبعد جهاد ممض شديد امتزجت فيه المضحكات
بالمبكيات ، واشتبكت فيه قوى الشر مع قوى الخير فى عراق
تواصلت مواقعه فى أثناء الليل وفى أثناء النهار ، سن قانون
فى سنة ١٨٧٠ جعل للمرأة الحق المطلق فى ادارة ما تملك من
عروض الدنيا ، وكف الرجل عن شىء من ذلك العبث الذى

لم يكن له من سبب الا انه هو الذى شرع لنفسه وللمرأة ،
فوضع من الشرائع ما أَرْضَى خيالاته التى وجهها فى الاكثر
ما فيه من نزوات التسلط وشهوات الخسة والدناءة وسفالات
الانانية الكريهة •

على أن هذا القانون لم يكن الا قانونا حسن الصورة
سيىء المخبر • فانه خلف ملكية المرأة ما عدا استثناءات
لا قيمة لها ، غير محمية ولا مستندة الى حق تشريعى ظاهر ،
فقد سكت القانون وقطع لسانه عن النص على شىء يجعل
للزوجة ملكا متحيزا ينقل الى الذهن معنى الملك على ما تفهمه
الآن • فلم يكن لها من حق أن تقاضى غيرها أو يقاضىها
غيرها • ولم يكن لها الحق فى أن تتعاقد بغير ارادة زوجها
واجازته قانونا • والملك الشخصى الذى يوصى لهابه بعد الزواج
اذا تجاوز مئتى جنيه أصبح الزائد من حقه المطلق • وبالرغم
من أن القانون قد قرر ان لها حق الملك وأن الرجل قد كف
عن سلطان التصرف فى ملكها من غير اجازتها ، فان له حال
حياته الحق المطلق الذى لا يحد بحد ولا يتقيد بقيد
فى التصرف فى غلة ذلك الملك كيف يشاء •

أما الذين يقولون بأن المرأة قد خلقت للبيت فانما هم
يريدون أن يرتدوا بالمرأة المسلمة الى هذه الحال عينها ،
ان لم يكن بنص القانون فبالحيله حينا ، وبالتحايل حينا آخر ،
لتصبح المرأة وما تملك متاعا للرجل • بئس للظالمين بدلا •

من عجائب الأوضاع الانسانية أن أمة لم تضرب بسهم كبير في مدارج الرقى المدني مثل روسيا في القرن التاسع عشر، ظل حق ملكية النساء فيها مقررا محترما منذ أبعد أزمان التاريخ، بل ان هذا الحق كان ثابتا كاملا لا يؤثر فيه مختلف الحالات التي تتعاقب على حياة المرأة فهي قبل الزواج وبعده مطلقة التصرف فيما تملك، ولا يؤثر الزواج في ملكيتها بصورة من الصور • وفيما بين سنة ١٨٤٨، ١٨٦٠ شرعت الولايات المتحدة عدة تشريعات ثبتت حق ملكية المرأة وجعلته قائما على أساس صريح من القانون •

أما في القارة الأوروبية، فقد اختلفت التشريعات اختلافا كبيرا باختلاف الأمم والدول • ففي بعض الممالك الأوروبية، وعند اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته، كانت حقوق الملك للمرأة أرقى بعض الشيء أو كانت مساوية لحقوقها في إنجلترا قبل سنة ١٨٥٧، ولو أنه كان من الممكن بشروط خاصة في عقود الزواج، أن تتحسن شيئا ما •

في بداية القرن العشرين وقبل نهاية القرن التاسع عشر اتجه التشريع الى ناحية العمل على استقلال المرأة بما تملك من حطام الدنيا، ومساواتها بالزجل من حيث ذلك • أما معاملة المرأة، متزوجة كانت أو غير متزوجة، معاملة القاصر أو السفينة الذي لاحق له في أن يتصرف في ماله أو أن يتعاقد

الابارادة وصى أو قيم فأمر ظل قائما فى الشرائع الاسكنديناوية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حيث ألغى . كما أن آثار ذلك النظام قد ظلت واضحة فى تشريعات سويسرا حتى سنة ١٨٧٤ ، وفى الدنمرك الى سنة ١٨٨٠ . وصدر فى النرويج تشريع (سنة ١٨٨٨) حمى ملكية المرأة المتزوجة . أما القانون الايطالى من وجهة حماية ملكية المرأة المتزوجة ، فأرقى بكثير من القانون الفرنسى ، ولو أن القانون الايطالى قد استمد من القانون الفرنسى أصلا ، كما أن القانون المدنى الألمانى الذى عدل فى أواخر القرن التاسع عشر قد اتجه نفس المتجه الذى اتهم به المشرعون الايطاليون . ومما يغتبط له حقاً أن هذا الاتجاه النبيل قد ساد شرائع جميع الأمم المتمدينة فى العقود الأولى من القرن العشرين .

- ٦ -

أما الارث بلا وصية فقد ظل فى انجلترا موضعاً لبعض العسف وتفضيل الرجل على المرأة . فإذا مات رجل بغير وصية ، ذهب نصف ما يملك لزوجته اذا لم يكن له ولد ، والنصف الآخر لورثته من العصب . أما اذا توفيت الزوجة ولم تترك وصية ، ذهب جميع مالها للزوج . وفى سنة ١٨٩٠ سن قانون نص على انه اذا مات رجل بلا وصية ، ذهب جميع ما يملك الى الزوجة اذا كان ملكه كله لا يتجاوز خمسمئة جنيه . أما اذا جاوز ذلك ، فانها تأخذ خمسمئة جنيه علاوة على نصيبها الأصلى منه .

وكذلك فى محاكم الطلاق ، فان المرأة لا تساوى الرجل فى الحقوق • فانه فى الوقت الذى يستطيع فيه الرجل أن يحصل على الطلاق اذا ثبت عليها الزنا ، فان على الزوجة أن تثبت الى جانب الزنا من ناحية الرجل نزوعه الى القسوة أو الهجران أو غير ذلك من الخبائث ، حتى تمنح أجازة الطلاق • كان هذا شأن الرجل والمرأة ازاء حق الطلاق قبيل نهاية القرن التاسع عشر فى انجلترا • ولكن فى سنة ١٨٧٨ سن قانون عدل بقانون آخر صدر فى سنة ١٨٩٥ جعل من حق النساء الفقيرات طلب الانفصال عن أزواجهن اذا ارتكب الرجل شيئاً من أعمال القسوة والتعذيب أو الضرب أو اذا ثبت انه ترك أطفاله بغير ما يقيتهم اختياراً وجعل للمرأة حق الوصاية على أولادها الى سن السادسة عشر ، وأجبر الرجل على أن يعطى لهم نفقة أسبوعية طوال هذه المدة •

* * *

وما كان لمفكر اجتماعى أن ينظر فى هذه الحالات الا ويعتقد أن النساء الانجليزيات كن على حق فى أن يجأرن بالشكوى من التشريع فى بلادهن • وانه لحق أن الزيجات التى يتكافأ فيها الطرفان ، قد تقل فيها أسباب الشعور بعدم المساواة ، وان متاعب الحياة فيها تكاد تكون غير محسوسة ، ولكن وظيفة القانون الأساسية انما تنحصر فى حماية الضعفاء من سوء استعمال ما يكسب الاقوياء من حق ان شرعاً وان عرفاً •

ولم يكن فى القانون الانجليزى ناحية ظهر فيها تمكن
الاغنياء من الانتفاع بالقانون دون الفقراء ، مما كان فى
شرائع الطلاق • فقد ظل أمر الطلاق أطول الازمان ممكنا
لأولئك الذين يستطيعون تحمل النفقات الباهظة التى تتطلبها
استصدار اذن خاص من البرلمان • والمحاكم الخاصة التى
كان من شأنها النظر فيما ينزل بالنساء من عسف وجور ورد
تلك المظالم عنهن ، كانت فى غير متناول الفقيرات لكثرة
نفقاتها وعجزهن عنه أدائها • ومع هذا فإنه فى البيوت
التي خيم عليها الفقر وهددها الخراب حتى لقد خرج من
نوافذها الحب والعطف والانسانية ، حيث يسود الادمان
على الخمر وترتع الرذيلة وتعصف النزوات بكل معانى الرحمة ،
كانت ترتكب تلك الخطايا التى ان تناولها القانون بما يحقق
المساواة أو جزء منها ، فقد يحول الفقر دون ان يصل
القانون سيفه على رءوس البغاة المعتدين •

— ٧ —

ان عناية المرأة وازدياد الرغبة عندها فى الاشتغال بالأموال
السياسية ، كان فى أكثر الامر تناجا لما أحست من تفضيل
الجنس الآخر عليها أمام القانون وفى المعاملات ، وأطمعها فى
أن تنغمر فى لجج السياسة ما أنست من قدرة على رفع تلك
المظالم التشريعية التى حاقت بها من قبل ، فمضت تعمل بجهد
وفراة نادرين على أن تنال حق التصويب فى الانتخابات

العامّة ، وقد بدأت حركتها تشتد وتقوى في بداية القرن العشرين •

لقد كان للحركة السياسية النسوية في انجلترا أسباب من التقاليد ومن العرف ومن القانون ، ولكن نزعتها الى العمل على نيل حق التمثيل النيابي انما يرجع في أكثر الأمر الى عبقرى من عباقرة الانجليز هو الفيلسوف « جون ستيوارت مل » • بدأ « ستيوارت مل » حركته بأن قدم الى مجلس العموم مشروعا ملحقا بقانون الاصلاح ليقدر المجلس للنساء حق التمثيل النيابي في سنة ١٨٦٧ ، ودافع عن مشروعه دفاعا مجيدا برسالة نشرها وبين فيها كيف تستعبد المرأة وكيف تنتهك حرمتها ، وعقب على ذلك ببضعة رسائل أخرى تناول فيها هذا الموضوع من جميع جهاته • ولقد قويت تلك الحركة من بعد ذلك اذ أيدها ظروف جعلت الرأي العام الانجليزى أميل الى التسليم بحقوق المرأة النيابية ، حتى انتهى الأمر بأن اعطيت حق التصويت في نواح قريبة جدا من مجال السياسة الصرفة • ففى قانون اصلاح البلديات الذى صدر فى سنة ١٨٦٩ منحت المرأة حق الانتخاب فى جميع الانتخابات البلدية • وفى سنة ١٨٧٠ اعطين حق التصويت فى انتخاب أعضاء مجالس التعليم • وفى سنة ١٨٨٨ اعطين حق التصويت فى انتخاب أعضاء مجالس الاقاليم • أما قانون ١٨٩٤ ، ذلك القانون الذى حور فى انجلترا كل نظام الحكم المحلى ووسع

توسعة كبيرة في نظامه التمثيلي ، فقد محى كل أثر لتفضيل جنس على الآخر في مسائل الانتخاب .

كانت هذه البداية بمثابة تمهيد لأن تشترك المرأة في انتخاب أعضاء مجلس البرلمان . فان اشتراكها في المعارك الانتخابية الصغرى ، وتمرسها بخوض بعض المعارك كان فيها الكثير من التنازع والمجاهدة ودرس المشكلات المحلية وتكوين الرأى فيما يضر وفيما ينفع ، كل ذلك كان مدرسة عليا أخذت فيها مدارك الانجليزيات تتضح وتستقر على صورة ديمقراطية صحيحة أصبح لها فيما بعد أثرا بعيدا في توجيه سياسة الامبراطورية ، حتى لقد أصبح لها الحق بعد سنة ١٨٩٤ أن تعطى صوتها في انتخابات مجالس الابرشيات ومجالس الأقاليم ومجالس التعليم وانتخاب القيمين والأوصياء على الفقراء والمعوذين . ولقد أصبح لها في جميع ما ذكرنا حق أن تنتخب وأن تنتخب ، فتتقدم ناخبة وتتقدم منتخبة . ولقد نجح كثيرات منهن في نيل عضويات كثيرة في هذه المجالس ، كما أن بعضهن قد استطعن أن يدرن معارك الانتخاب بقوة ومهارة أتعبت كثيرا من مبرزى الرجال . وكثير من هذه المعارك قد خاضتها المرأة على قواعد حزبية أو قواعد سياسية ، كما أن كثيرا من الضرائب التى فرضت على الشعب الانجليزى قد أقرتها مجالس أشترك النساء في انتخاب أعضائها أو كن عضوات بها . واذن لم يبق بعد سنة ١٨٩٤ أمام المرأة

الانجليزية الا خطوة قصيرة لتصبح من مقومات الحكم
الأعلى لتلك البلاد بنيل حق الانتخاب لمجلس البرلمان •
ولكن بقى أمامها معركة حامية الوطيس ، كان من الضروري
أن تخوض غمارها •

— ٨ —

من الأسباب التى اقيمت للحيلولة بين المرأة والحقوق
التمثيلية ، أسباب بعضها مضحك وبعضها مناف للعقل • من
الأسباب المضحكة مثلاً ذلك القول الذى يلجأ اليه اليوم
بعض المصريين ممن يزاولون مهنة الرجعية اذ ينون كل
حجتهم على أن المرأة أم وينبغى أن تكون للبيت ولبيت
وحده • ومن الأسباب المنافية للعقل بل وللطبيعة قول البعض
بأن المرأة أخضع لشهواتها وانفعالاتها من الرجل • كأن
هؤلاء القائلين بهذا القول لم يدركوا بعض الحق الذى أظهرنا
عليه التاريخ فيروا الى أى درك من الاسفاف والفساد بلغت
نزوات الرجال والى أية مهواة سقطت فضائل الانسان وضحى
بها ارضاء لشهواتهم الخسيسة ونزواتهم واطماعهم
وخبائثهم الجلى •

قيل فى أوروبا ان كفاية المرأة على وجه العموم أدنى من
كفاية الرجل • وقيل انه لم يخلق بعد امرأة دانت شكسبير
أو هندل أو رفائيل • ومن ذا الذى قال بأن مثل هذه الكفايات
الفذة العالية شرط واجب فى كل من يعطى حق التصويت

أو حق التمثيل النيابي ؟ ومن ذا الذى استطاع أن يثبت
ان المرأة فى مختلف العصور لم تظهر من الكفايات ما كان
ذا أثر بالغ فى الحياة السياسية ؟

ان الدور الذى سمح للمرأة أن تقوم به فى الحياة العامة
قد اختلفت منازلها باختلاف العصور . ففى اليونان القديمة
وعند الرومان اقتصت المرأة ونحيت عن كل ما يتصل بالحياة
السياسية العامة . اقصاها عن ذلك الميدان امران : القانون
والفكرة العامة أى الرأى العام ، وجرداها من كل حق سياسى .
فان من السقطات الشنيعة التى عدها الرومانيون على
« اليوجا بالوس » ، بل ان أبرز سقطة عدوها عليه على كثرة
ماله من سقطات ومفارقات ، هو تعيين والدته عضوا فى مجلس
السينات . فلما قتل ذلك الامبراطور قتلت معه ، واتخذ بعد
ذلك كل احتياط تشريعى ممكن للحيلولة دون تمثيل ما اعتقد
الرومانيون انه من أعظم مآسى تاريخهم . ولا يدلك على
مقدار ما شعر به الرومانيون من انتهاك لحرمتهم من جراء
ما ارتكب امبراطورهم هذا ، قدر ما يدلك أنهم وهبوه بعد
قتله الى آلهة الجحيم . آلهة النار السفلى . وظل الأمر
فى هذه الامبراطورية على ذلك حتى انتقل مقرها الى بوزنطيه
فى الشرق ، فحكمت المرأة واحتكمت فى مصالح تلك
الامبراطورية العظمى .

ولكن الأمر كان على عكس ذلك فى غير اغريقية وروما ،

إذا كان دور المرأة في السياسة عظيما بالغ الأثر • فهناك تلمع أسماء سميراميس وأرتيميسيا وزينوبيا وديورا ويواثيقية وبرنيقية ابنة بطليموس الأول وكليوبترا • أما الصورة التي صور بها المؤرخ تاقيطوس النساء الجرمانيات وما كان لهن من أثر في السلم والحرب ، فصورة فذة ولا مرأ • وكفى أن نعرف أن الجرمانيات كن شوكة في جنب الأمبراطورية الرومانية طوال ذلك الزمن الذي اشتد فيه الكفاح بين قبائل جرمانيا وامبراطورية روما •

أما ملكات مصر القديمة فكفى بهن مثلا • وأما ما تركن من أثر في قيادة أكبر المدن القديمة وأعظمها أثرا في ترقية النوع البشري ، فذلك ما ينبغي أن يكتب في صفحة الخلد بحروف من نور • ولم تنزل المرأة عن مكانتها التي كسبتها في مصر القديمة بعفتها وقوة خلقها حتى اليوم • فان الملكات ووصيات الملك اللائي يذكرهن التاريخ الحديث قد رفعن ذلك المشعل الذي كانت ملكات مصر أول من حملنه في تاريخ الانسان • وان قليلا من ملوك أوربا الحديثة من لهم الحق في أن يرتفعوا الى مكانة ايزابلا الاسبانية أو كاترين الروسية أو مارياتريزا النمسوية • وان أطول ملكين مرا بانجلترا كانا ملك الملكة اليزابيت والملكة فكتوريا فلم يمر بالانجليز عهود كانت أكثر من عهديهما رخاء وديمقراطية وأصالة وتمكنا في الأصول والفروع •

وكذلك الحال اذا رجعت الى فرنسا . فقد يذكر تاريخ تلك البلاد ما لا يقل عن أربعة وعشرين وصية من وصيات الملك ، حملن فرنسا على أكتافهن الرقيقة في أعصف أيام تاريخها . ومن الأسف أن فرنسا قد أصابتها النكسة في زمن الجمعية التأسيسية إبان ثورتها الكبرى ، فمنعت تلك الجمعية المرأة من أن تكون وصية على الملك ، وقصرت ذلك الحق على الرجال وحدهم . ومن ذا الذى ينكر أن ذلك كان انتكاسا فرنسيا ؟

— ٩ —

أما من حيث القدرة الادارية فلا شك مطلقا في أن المرأة تفخر بمنزلة لاتداني . فمن ذا الذى يستطيع أن ينتقص هذه القدرة اذا نظر فيما كان لها من أثر في تأسيس المذاهب الدينية في القرون المظلمة . ولا ننسى أيضا ما أظهر الديرانيات والراهبات من مقدرة فذة في تدبير شئون الأديرة ، أو ما أبدى من حسن الادارة والفراهة التنظيمية في العصور الأكثر جدة ، نساء قمن بتأسيس البيوتات الكبيرة كما أنشأن أو أدرن الأعمال الانتاجية أو الصناعة العظيمة أو معاهد البر . ولقد كان أثر المرأة بارزا محسوسا في جميع البلدان التى نجح فيها اقامة هذه المعاهد فحسنت فى كلها ادارتها وأدت بفضلها رسالتها على أكمل وجه .

ولا يدلك على شئ عن مقدار ما كان لتلك السيدات من منزلة واحترام ، مثل ما يدلك ما خلف الفنان المصور

رامبراندت وأتباعه من لوحات خالدة مثلوا فيها سيدات
الدانمرك اللواتي قمن وصيات على معاهد البر في تلك البلاد .
وفي انجلترا الحديثة ضرب المثل بما كان للمرأة من قدرة
وحسن تدبير في ادارة بيوت الفقراء والمستشفيات والسجون
والمدارس وفي غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية التي
لا تحصى عدداً . وان الأثر الذي خلفته في تلك البلاد لأثر خالد
حتى ليخجل أى انسان ألم بشيء من تاريخ انجلترا الاجتماعية
أن يمارى فيه أو ينتقصه . وكم من ثروة بددها الرجال
بالاهمال والاسراف قد استرد بفضل عناية المرأة وحسن
قيامها على العمل واستمساكها بفضائل الأخلاق والعزم
والحزم والقدرة الفائقة . وفي أية ناحية من نواحي مجتمع
كبير تقع على مثل تلك الفراهة الفذة التي أظهرها نساء
الطبقة المتوسطة في فرنسا ، تلك الفراهة التي نوه بها أفراد
من الكتاب وعابرة من رجال الاجتماع .

وبعد : فمن ذا الذي ينكر أن تلك الكفايات العليا التي
امتازت بها المرأة في جميع مآذركنا من نواحي الحياة في أوروبا ،
لم تكن ذات أثر بالغ في الحياة العامة ؟

وما من شك من أننا في مصر الآن نجتاز نفس ذلك الطور
الذي نبذ فيه أهل أوروبا فضيلة الاعتراف بالحق ، وراحوا
ينظرون في مثل الحقائق التي ذكرنا نظرة من يعتقد أنها
سطحية أو منافية للعقل ، ذلك بأنهم أنكروا أن الكفايات
العقلية والخلقية ذات قيمة ما في التصويت الانتخابي وفي

التمثيل العام ، في حين أنهم قد أضفوا ذلك الحق على فئات من الأغبياء والبلهاء والجهلاء والمسرفين وأهل الفراغ • بل انهم سبقونا بقرن كامل في العمل على تقوية الأحزاب بأفراد من أهل النفوذ والعصية ، وأهملوا أهل العلم والكفاية والاستقلال في الرأي والصراحة في القول • وما ذلك الا لأن الحكومات التي لم يكمل فيها الاستقرار الديمقراطي انما تعتمد على النواب الآليين ، وتكره الذين يعقلون أو يفهمون • ولعل هذه الظاهرة عامة في جميع الحكومات على اختلاف ألوانها وعلى تفاوت درجاتها مهما كان أمر استقرارها التمثيلي • بل أضيف الى ذلك أن ممثلي الأمة في حكومة ضعيفة رخوة القوام مائعة الكيان ، انما هم صورة من الحكومة التي تعتمد عليهم في الفوز بأغلبية في مجالس التمثيل تضمن لها كراسي الحكم •

— ١٠ —

سبب آخر من الأسباب التي يركن اليها أولئك الذين ينكرون على المرأة حق أن يكون لها صوت في السياسة ، ينبغي لنا أن نتكلم فيه بإيجاز ، لأنه على ما أعتقد ، ليس من الأسباب الواهية التي لا ينبغي أن يؤبه لها • ذلك قولهم أن المرأة أقل من الرجل قوة بدنية وانها لا تدافع عن الوطن في معامع الحرب • وقد يكون في ذلك شيء من الحق لو أن الأمر لم يقف عند الحالة الراهنة بين الرجل والمرأة ، وسأوت

القوانين والشرائع مساواة تامة بين الجنسين في جميع الحقوق على اختلاف ضروبها وتباين حالاتها • كان يصح أن يكون لهذا الكلام بعض الوزن اذا فرضنا أن أصحاب الحق في التصويت من الجنسين سوف ينقسمون فريقين متعاديين : النساء فريق والرجال فريق آخر • ومن ذا الذي في استطاعه أن يقضى بأن الشرائع ينبغي أن تحرم النساء المسنات والرجال المسنين من الحقوق المدنية كافة لأنهم أصبحوا عاجزين عن القيام بواجبات الحرب أى الخدمات العسكرية ؟

وحتى لو فرضنا أن الاشتراك في الحرب شرط ضرورى في من يكون لهم حق التصويت ، فان هذا الفرض لا ينهض دليلا على حرمان النساء من حق الانتخاب وحق التمثيل • فان النساء ، شأنهن في ذلك شأن الرجال ، يتحملن من أعباء الضرائب التى تفرض فى كل حرب نصيبا غير منقوص ولا مزيد عما يتحمل الرجال • وبالرغم من أنهن لا يحملن من أعباء الحرب ما حمل الجرمانيات اللواتى وصفهن « تاقيطوس » أو ما حمل الارلنديات فى القرن السابع اذ كن يصاحبن أزواجهن فى ميادين الحرب ، فانهن قد اضطلعن فى كل حرب حديثة بنصيب ذى قيمة كبيرة • فهل من المفكرين أو غير المفكرين نزع أحق يستطيع أن يقول أن ما قام به جاويز فى ميادين الحرب كان أثمن قيمة وأعلى قدرا مما قامت به « فلورانس نيتا نجيل » فى حرب القرم « أو مس كافل » فى الحرب العالمية الأولى ، هما ومن كان معهما من المتطوعات؟

وليس المثل الذى ضربه هاتان بأكرم من المثل الذى ضربه النساء فى حرب أمريكا الأهلية اذ قمن بتأسيس « البعثة الصحية » التى خففت الكثير من ويلات الميدان ، وكان عملهن المثل الأول الذى اتتجه فيما بعد كل أمم الأرض ، وما جمعيات الصليب الأحمر غير أثر من آثارهن !!!

وما كانت الحرب غير واجب من واجبات كثيرة تفرضها الحياة القومية ، وليس هنالك من سبب حقيقى يحملنا على أن نربط بين ذلك الواجب وحق التصويت . وإذا كانت الحروب فى البلاد الديمقراطية لا تعلن الا بارادة نواب الأمة ، فلماذا لا يكون للمرأة رأى فى ذلك اذا كان من الضرورى أن تحمل عبء الحرب مع الرجال .

قيل بأن الصوت الانتخابى انما يمثل القوة ، كما يمثل ورق النقد معدن الذهب ، وانه من أخطر الأشياء فى حياة أمة من الأمم أن تفصل الشرائع بين قوة التصويت والقوة الطبيعية هذا ليقال أن الرجل هو صاحب القوة العضلية ، فهو اذن صاحب الحق المطلق فى التصويت . وان هذا لدليل فيه نقص ، لأن المرأة لم تقاوم فى عهد من عهود التاريخ أى تشريع دعاها الى التضحية فى سبيل الواجب القومى بما فى ذلك أعباء الحرب ، ولم تأنف أن تسرف فى انهالك قواها العضلية اذا دعيته الى اداء واجب . وانها لتؤدى كما أدت خلال كل العصور واجبات لم تنقصها الحاجة الى استعمال

القوة العضلية ، ففي الحقل وفي المعمل وفي البيت لا ترضى المرأة بعضلاتها كما أنها لا ترضى بأعصابها وجميع ما أضفت عليها الطبيعة من مواهب الحياة .

- ١١ -

وقيل بشيء من المرارة والحزن العميق أن جملة ما في المرأة من خَلَقِيَّات سوف ينتابه انقلاب كبير إذا سمح بأن يكون لها حق التصويت في الحياة العامة . وليس في معركة تحرير المرأة على تشعب أطرافها واتساع نواحيها من موضوع استأثر بعناية الكتاب والمفكرين أكثر مما استأثر موضوع الخلق النسوى وتأثره بالانغمار في الحياة الصاخبة التي ندعوها حياة الرأي العام .

أما من حيث التزاحم على ابداء الرأي في الانتخاب فمشكلة حلت باتباع طريقة الصندوق الانتخابي . فليس من شيء أسهل على انسان رجل كان أو امرأة من أن يدخل حجرة هادئة ثم يمسك ورقة يكتب فيها اسم شخص آخر ثم يلقى بها في صندوق أمامه . أمر لا يأخذ من وقت الانسان أكثر من خمس دقائق كل خمس سنوات !!!

ومن ذا الذي يقول بأن هذا العمل البسيط أو التفكير في تكوين رأي سياسى ، هما من الأمور التي تدخل كثيراً في تبديل الأفكار أو الأخلاق أو مقومات الحياة ؟ والذين يتناولون هذه المسائل الهامة بالبحث يكتبون وهم متأثرون

بفكرة خاصة هى أن كل من له حق الانتخاب العام أو التمثيل
 النيابى انما يقضى كل برهة فى حياته مهموماً بذلك الأمر
 منغمساً فيه مستغرقاً فى بحثه والفحص عن كل ما يتعلق به
 من أمور هذه الدنيا • وليس الأمر كذلك على إطلاق القول •
 وقيل بأن المرأة انما خلقت للبيت • وإن كثيراً من النساء
 وبخاصة ممن ينبغى أن يكون لهن حق الانتخاب والتمثيل
 وهن فى العادة متعلقات مثقفات ، لا يجدن فى بيوتهن من المهام
 ما يقطعن به وقت الفراغ الطويل ، فيبحثن عادة عن عمل
 أو يتخذن لهن مهنة مفيدة ، يزدن بها مركزهن الاجتماعى
 قيمة ويستقوين بها على مجابهة هذه الحياة أو يستعن بها
 على طرد السأم والملل • وانه لمن البين أن الحياة البيتية
 الصرفة ، المقصورة على مهام الحياة الأولية ، لحياة تجد
 فيها المرأة من السأم ما يجد الرجل الممتهن من بواعث الملل
 فى مهنته • وهل يوجد فى هذا العالم كله من امرأة يستغرق
 البيت من حياتها اربعة وعشرين ساعة فى اليوم ، فلا تجد
 فى هذا الزمن فترات يمكن أن تقضيها عاملة أو مفكرة
 أو منتجة ؟ وهل توجد زوجة أو أم أو فتاة استغرق البيت
 كل ساعات حياتها ، بحيث لا تستطيع أن تقطع منها جزءاً
 تنفقه فى التفكير فى مستقبل أمتها ومركز دولتها من العالم
 الحاف بها كما يفكر الرجل ؟ وهل فى أشياء هذه الحياة
 من شىء هو أبعد عن المنطق من الاعتقاد بأن مجموعة أصحاب
 الأصوات فى أمة انما هم فئة مختارة منتقاة ، أكبر أفرادها

على درس السياسة والاجتماع ومهروا في وزن حقائق
المشكلات العالمية ، وان هذه المجموعة لن تكون الا من
الرجال دون النساء !!!

— ١٢ —

من الهين أن يدعى انسان انه من المكروه أن يكون للمرأة
أية علاقة بالسياسة أو أن تنصرف الى التفكير في الامور
السياسية ، وانه من مصلحتهن ومحافظة على مركزهن الطبيعي
في المجتمع أن يظللن بعيدات عن الانغمار في هذا المعترك .
كان هذا رأى الاغارقة في الزمن القديم . وما زال عليه كثير
من أهل هذا الزمان . ولقد استعلى هذا الرأى في بريطانيا
الى اواخر القرن التاسع عشر . ولكن مما لا سبيل الى انكاره
ان تطور الحالات الاجتماعية ونشوء فكرات جديدة في الآداب
عامة وخاصة ، وتقدم العلوم والفنون ، وسيادة نزعة الحرية
على كل ما عداها من النزعات الانسانية ، عامة ذلك لم يجعل
لهذا الرأى من وزن يقام في هذا العصر . ولقد مر على كل
البلاد التي ضربت في المدنية الحديثة بسهم ، دور من الانقلاب
الفكرى كانت فيه مشكلة المرأة الاجتماعية من أظهر ما عنى
به الساسة والمصلحون ورجال الدولة . ذلك بأن ما أصبح
للمرأة من أثر في السياسة صار قويا يانع الأثر في جميع
البلاد التي أمحت فيها الأمية وشارك فيها الفتيات الفتيان
في التعليم الجامعى وسمى فيها الأدب والفن وذاع ما لهما

من توجيهه في الحياة العامة • وإذا نظرنا في الثورة المصرية خاصة ، لما وجدنا من مظهر فيها كان أبلغ أثرا من خروج المرأة المصرية الى ميدان العمل والفكر •



تعتلى المرأة الآن منابر الخطابة ، وتحرر في الصحف ، وتؤلف الكتب وتفكر وتؤيد حزبا على حزب وتنضم الى فريق دون فريق وتنحاز الى رأى دون رأى • وبالرغم من أن المرأة في مصر لم يصبح لها حق الانتخاب أو التمثيل ، فإن أثر المتعلمات قد أصبح ذا أثر محسوس في الحياة وبخاصة في الأمور السياسية • وينبغي أن نعلم ان أثرها في السياسة كائن بالفعل • واذن يكون اعطاؤهن حق الانتخاب ، ليس ضروريا ليصبحن سياسيات ، لأنهن أصبحن سياسيات بالفعل • ولا ننسى ان حرمانهن من هذا الحق قد يجعل اشتغالهن بالسياسة منصرفا الى ناحية الدعاية والتهيج الاجتماعي ، بدلا من أن يكون مشمرا مجديا اذا أضفى عليهن ذلك الحق الذي ينادى بأنه الحق ، كل مظهر من مظاهر التطور الذي سرنا فيه حتى الآن •



— ١٣ —

نظر في مشكلة المرأة من ناحية فلسفية ، وان شئت فقل من ناحية فوقطبيعية •

نزع المفكرون في هذه الناحية الى ما سمي الحقوق الطبيعية ، ثم الى سنن الطبيعة ، التي وصفت حيناً بأنها فطرية شاملة ثابتة لا تتغير . وكل ما قام على هذه النواحي الفطرية من الأقوال والمبادئ ، ينبغي أن ينبذ الآن وي طرح . فقد كان وليد حالات اصطناعية في المجتمع فات زمانها وانقلبت آيتها .

فان القول بالحق الطبيعي الذي أيده « روسو » وتابعوه وقام على أن كل رجل يملك بالطبع شطرا من القوة السياسية ، والقول بالسنة الطبيعية غير المبدلة من أن المرأة خلقت لتكون عالة على الرجل وانها لا تصلح لأن يكون لها ضلع في الحكم ، كلاهما لا يقوم على أساس من الصحة ، بل انهما من النظريات التي أملتتها وراثية طويلة لتقاليد حالات اجتماعية جامدة ، ظن خطأ أنها من أشياء الطبع ، وأنها ليست من الافتعال في شيء .

قد يقال بشيء من الحق أنه حيثما تقع على شيء من عدم المساواة السياسية أو المفارقات في الوضع الاجتماعي ، فان ذلك انما يبرر في العادة بشيء من المنفعة تجنى من ورائه . فهل من الحق مثلا أن يكون شراء بيت أو أى عقار آخر مبررا لاعطاء الرجل حق الانتخابات ولا يكون مبررا لاعطاء المرأة نفس هذا الحق ، كما حدث في كثير من البلاد الديمقراطية ، أم ان ذلك من المفارقات التي لا تقوم على أى أساس من المنطق أو الواقع ؟

هل من الحق أن تكون المرأة القائمة على ادارة بيوت
صناعية كبرى يستخدم فيها عمال ، أو التى تملك عقارا ينتفع
به مستأجرون ، تحرم من حق الانتخاب ، ثم يضمنى هذا الحق
نفسه على عمالها ومستأجرى أملاكها ، كما حدث فى إنجلترا
الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكما هو حاصل
فى مصر اليوم ؟

وهل يصح عقلا ومنطقا ، كما حدث فى بعض البلاد من
قبل ، أن المرأة المالكة لأطيان زراعية ، والتى يحتشد من
حولها قطيع من المنتفعين أو المستخدمين والعمال ، تظل عطلا
من التمتع بأى حق سياسى ، فى حين أن أولئك الذين يعيشون
بفضل ثروتها والذين هم فى الواقع خدامها وعمالها ، يكون
لهم ذلك الحق دونها ؟

هل يصح ، كما صح فى كثير من البلاد الاوروبية التى
ربطت نظمها التمثيلية بين دفع الضرائب وحق التصويت
والتمثيل وجعلت تلك الحال أساسا أوليا من أسس الحرية ،
أن يحرم النساء المالكات من أن يكون لهن صوت فى فرض
الضرائب الحكومية التى يشاركن مشاركة فعلية فى دفعها ؟

— ١٤ —

اعترض على اعطاء الحق السياسى للمرأة باعتراضين ،
كلاهما ظاهر البطلان :

الأول : ان النساء لا يطالبن بذلك الحق ، حق التصويت
والتمثيل ومن ثمة بحق الحرية السياسية •

والثاني : بانهم اذا نلن هذا الحق فانهم سوف يستعملنه بطريقة تضر بمصالح الأمة •

قيل بمثل هذا في انجلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا والمانيا • وليس لنا أن نطنب في سرد الأدلة التي أقامها أصحاب هذا القول ، والأدلة التي استند اليها معارضوهم • ذلك بأن الدليل المادى قد قام بالفعل ، فاعطيت المرأة حقوقها السياسية في تلك البلاد وفي غيرها ، ولم ينتج عن ذلك أى ضرر بمصالح تلك الأمم من جراء ذلك • بل انى أعتقد أن التوازن الاجتماعى قد أصبح بذلك أكثر استقرارا والآداب السياسية قد أضحت أرفع وأسمى مما كانت •



ان الذين يقولون بأن المرأة عنصر فاسد فى دنيا السياسة ، انما يتكلمون بعقلية أثرت فيها التقاليد الموروثة وأصابها جمود التواتر الزمانى • وانه لمن أعسر الأشياء على عقليات استأثرت بها نظمات أصبحت على مر الزمان لزاما ، ولبست ثوبا من القداسة ، أن ترى الحقائق الواقعة سافرة بينه • لأن غشاوة العقيدة الموروثة التى تعمى على هذه العقليات ، تحجبها على أن ترى تلك الأشعة اللامعة التى ترسلها طبيعة المرأة فى ظلمات المجتمع الانسانى ، وتقف بها عند خرافة أن كل الفضائل وقف على الرجل وان كل الرذائل وقف على المرأة ، كأن الطبيعة عند هؤلاء الجامدين قد فصلت فى الأزل

بين طبيعتين أحدهما جعلت سكنا للفضيلة وخص بها الرجل،
وجعلت الأخرى سكنا للرذيلة وخصت بها المرأة ، وان كل
الحقوق المدنية والسياسية ينبغى أن تقوم على هذه الخرافة •
والله يعلم فى أى من الطبقتين تكمن أخس رذائل الأخلاق •
ولئن كانت الخرافات قد شيدت فيما مضى معابد
الكلدان ومصر ، فانها قد شيدت فى عالم الاجتماع صوامع
للفكر حبس فى أركانها الأربعة ، وأسر فى لبناتها المرصوصة •
وعندى أن نكران حق المرأة السياسى فى جميع العصور كان
عنوانا على طفولة العقل ، أمعن من دلالة تلك المعابد التى
شيدها الوهم فى جميع المدينيات •

على المرأة وعلى الذين يؤيدون حقوقها السياسية أن
يرفعوا الصوت مدويا ، ويرسلوا الصرخات مرعدة مبرقة ،
فان فى الحياة المصرية يلمع نجم جديد •

القسم الثاني

حقائق واضحة في تطورنا الاجتماعي

الفصل الأول

نعمى عن الحقائق - العقلية التى تعالج بها
مشكلة المرأة - وراثتنا القديمة ونهضتنا
الجديدة - المرأة فى حياة القصور - المرأة فى
حياة الحظائر - تنشئة الفتاة فى حياة القصر -
الداداة والأغا - عقد نفسية تكتنف المرأة -
سلطان سيد القصر - التزوج بأكثر من واحدة
وأثر الانقلاب الاقتصادى .

- ١ -

نعمى فى هذه الدنيا عن الحقائق الملموسة ، اما المنفعة نرجوها ،
واما لتقاليد ورثناها ، واما لعقيدة اتحلناها ، واما ارضاء
لنزعات نفسية ، خسية أو رفيعة . ولكن نعمى على أى حال
عن ادراك الحقائق على روعتها وبيانها ، ويستعصى علينا أن
نرضى الشهوات والعقل معا ، وكثيرا ما نقمع العقل لنسترسل
مع الشهوات .

وقضية المرأة فى الحياة الاجتماعية ، من القضايا الكبرى
التي احتكمت فيها شهوات الرجال ، وصالت فيها نزعاتهم ،
وعموا فيها أو تعاملوا عن الاعتراف بحقائق هى من البيان
والظهور بحيث لا تحتل وراء أو استرابة .

ومضى الكثيرون متعامين عن الحق الواضح الجلى ،
قائلين بأن قضية المرأة قضية محلولة ، وان الزمن القديم
قد وضع لها القواعد وفصل الأصول وأتم الفروع ، مؤتمين
في ذلك بنظريات وأقوال أبلاها الزمن وناء عليها الدهر ،
فأصبحت مهلهلة فضفاضة بادية العوارت ، ولكنهم يحاولون
ستر عوراتها بالثرثرة الفارغة كقولهم « المرأة للبيت » وقولهم
« الرجل قوام على المرأة » وقولهم كما قالوا من قبل « المرأة
ليس لها نفس » ، من غير أن ينظروا برهة واحدة وراء
ظهورهم ليروا ذلك الفارق البعيد والصدع الكبير الذى
يفصل بين زماننا والزمان الذى راجت فيه مثل هذه الآراء ،
ومن غير أن يدركوا شيئا من فواصل الزمن والتطور التى
تفصل بين المرأة فى القرن العشرين بعد الميلاد والمرأة فى القرن
العشرين قبل ذلك الميلاد •

كأنما الزمن لا يدور وكأنما الأرض لا تلف حول الشمس ،
وكأنما تطور الأشياء ، عضويا ومعنويا ، ليس له من أثر
فى الحياة • وكأنما العقل لا يستكشف والنزعات لا تسمو
وتكرم ، والفكر لا ينظر ولا يتأمل ، والنفوس لا تتبدل
ولا تتغير ، والعلم لا يغزو الاجتماع ، والاختراع لا يرقق
من متاعب العيش أو يرفع من مطامع الناس فى دنياهم •

نعود الى الوراء ، ونمعن فى الارتداد الى أساطير القرون
الأولى ، ونرتقى فى أحضان النزعات النفسية والآراء المسفة

التي غزت عقول أوائلنا وأرضت مشاعرهم وهم يقطنون الكهوف والمغاور ، ويسرحون كالسوائم في الحرجات والأدغال ، كل هذا لنعمى على الحقائق الواقعة والوقائع الماثلة ، ولنرضى فينا شهوة أو تتمسك بتقليد درجنا عليه أو رأى نستعز به أو نعمة تدوى في أدمغتنا دوى الرعد ، لنخفت صوت الحق وننكر تطور الأشياء •

ما ظهرت هذه الأشياء واستقوت واستشرت في شيء من أشياء الحياة الاجتماعية ظهورها في قضية المرأة وبضعة قضايا أخرى منها انتشار الأديان العظمى وبزوغ عصر الديمقراطية الحديثة والانقلاب الاقتصادي الذي نعيش في ظل موحياته • على أن هذه النزعات العجيبة قد يعسر عليها الآن أن يكون لها نفس التأثير الذي كان لها في العصور الأولى ، بعد أن غزا العلم العالم ، ورفع الحواجز والحدود بين الأمم وبعد أن تحرك القلم فسالت حركته على الصحف وبفضل المطابع ، وسخرت الموجات الأثيرية لنشر النور في أرجاء هذا السيار الصغير • ذلك بأن هذه الدنيا ، بفضل العلم ، قد درجت نحو الوحدة والعالمية ، وأخذت تخلع عنها لباس العزلة والأسر • يدرج العالم الآن بمختلف شعوبه وألوانه نحو الوحدة التامة ، لا في السياسة ، ولكن في الميول والمشارب والمشاركة في ما كشف العلم من بركات وما صنع الاختراع من تطريبات • وإن العالم ليسير في سبيل هذه

الوحدة برغم ما تظهر فيه من رجعية* بعض الأحيان ، مثلها مثل
الغريق الذى يطفو حيناً ويطغى عليه الموج حيناً ، ثم ما يلبث
أن تبتله الأعماق • وإن السياسة التى اتفردت حتى الآن
بتصريف حالات العالم واحتكمت فى مستقبل الشعوب
والجماعات ، لتشعر اليوم بأن نزعة الوحدة العالمية قد قطعت
شوطاً كبيراً أخذ يوجهها شيئاً ما ، وسوف لا نلبث
غير قليل حتى نرى أن هذه الوحدة قد استعلت على سياسة
العزلة التى لا يزال السياسيون حتى اليوم يأتمون بهديها ،
وانهم فى الواقع كفى ظلام •

— ٢ —

بمثل هذه العقلية نعالج الآن قضية المرأة • وقد نسينا
الى جانب هذا بعض الحقائق الجلية • كانت المرأة المصرية
محجبة فاسفرت • وكانت جاهلة فأخذت تتعلم • وكانت
فاقة الارادة فتحركت ارادتها • وكانت محرومة فأصبحت
ممتعة • وكانت أمة فأصبحت سيدة • وكانت محقره فانتزعت
لنفسها الاحترام • وكانت آلة مسيرة فأصبحت عاملة وصانعة
ومحترفة وذات مهنة • وكانت بعيدة عن حياة المجتمع فأخذت
تزاحم الرجل بالمنكب والذراع • وكانت بعيدة عن ميادين
الحياة فمضت تغزو تلك الميادين بلباقة الفنان واريحية المدره
المنطيق •

يقول الرجعيون أن ذلك الذى أصابت المرأة من أشياء

الحياة انما كان وبالا على أخلاقها وفضائلها • وانما هم يقيسون الأخلاق والفضائل بمقاييسهم القديمة البالية ، ويزنوها بمعاييرهم التي هلهلها الزمن • ثم انهم لا يدركون أن المرأة تقدمت وأنهم هم الذين مازالوا واقفين وان دار بهم فلك الأرض •

أما الكلام في أخلاق المرأة وفضائلها وما أثر في هذه الأشياء تقدمها وغزوها لميادين الحياة ، فأمر سوف نعود اليه بعد لأن الكلام فيه يحتاج الى مقدمات تاريخية تنتزع حقائقها من ماضيها القريب • ولكن نكتفى الآن بأن نقرر الواقع الذي لا ينكره ذو عقل في أن المرأة دلفت الى الحياة وانها فكت عنها اسار القرون الأولى ، فهل تهدم كيان الاجتماع وهل تصدع ركن الحياة وهل استقوت الرذيلة وفاض مدنها واستخفت الفضيلة وارتد جزرها ، أم أنها أصبحت شريكا حراً ذا أثر في الوجود ، وانها أصبحت أربى لأولادها وأعطف على زوجها وأرتب لبيتها ، وانها أضحت أتقى سريرة وألين قيادا ، وأنها لزمت الصراحة وتركت اللؤم والمكر ، وانها تستقبل الحياة كما يستقبلها الأحياء الأحرار ، لا كما كانت تستقبلها وهي السجينة بغير ذنب ، المجرمة بغير جريمة المتهمه في عفتها وأخلاقها ، وان كانت مثال الطهر وعنوان العفاف !!!

ان الذين يقومون اليوم في وجه النهضة النسوية في مصر انما يكون زمنا غبر ودهرا عبر • يكون زمن الحجاب

والدادات والأغوات (الخصيان) ، زمن الستائر على النوافذ
والأبواب ، زمن التسرى واتخاذ الحظيات بالعشرات
وبالمئين ، زمن الفسق والفجور تحت ستار الفضيلة
والأخلاق ، زمن التعطل والبلادة والجهل ، زمن الانحلال
الأخلاقي والتدهور الفكرى ، زمن الجمود والظلامية •

ذلك الزمن الذى احتال فيه الرجال على كل شىء فى
الحياة المدنية • احتالوا على القانون وعلى الشرائع وعلى
وصايا الدين ، ونزلوا بجميع ذلك الى حيث أسفت نزعاتهم
العجبية ، والى حيث ارتضت شهواتهم • فما فكروا فى أن
للحياة والمدنية قوانين وان للقلب شرائع وان للأرواح دينا ،
ألا بقدر ما يتخذون من هذه الأشياء جميعا ألعيب وألهيات •
وما كانت القوانين والشرائع والأديان الا وسائل لانتزاع
الانسان من أحضان الجهالة والفقر والفساد • فاذا أهملت
القوانين واطرحت الشرائع ونسيت وصايا الأديان ، فأى
شىء يبقى من هذه الحياة الا ذلك المجتمع الذى يريد أن
يردنا اليه الرجعيون ؟

— ٣ —

خرجنا من نهضتنا الحديثة مزودين بوراثات وتقاليد
ترتد الى أبعد العصور • ترتد الى مصر القديمة وزمن
اليونان والرومان ، ثم العصر العربى ، ثم العصر العثمانى •
خرجنا من ذلك الزمن الطويل بلون من ألوان الحياة هى

عجيبة من عجائب الزمن ، بل انك لو تخيلت تلك الوراثة
كائنا حيا ، لكان هولة من هول الأساطير .

كانت المرأة في العصر المصرى القديم ملكة تربعت على
العرش وزوجة قدست ارادتها واحترمت أمومتها . بل كان
لها في السياسة ضلع كبير اذا كانت من الطبقة العليا . وكانت
حرة شاركت الرجل في البيت والحقل ، ورفعت بسواعدها
المستوى الاجتماعى للأمة على قدر ما سمح لها في ذلك
الزمن البعيد . وجاء زمن اليونان ، أو كما ينبغى أن نسميه
« العصر المقدونى » اذا أردنا أن ننسب ذلك العصر الى
الاسرة التى ملكت مصر بعد الاسكندر ، فكان طابعه
مخالفا للطابع المصرى من حيث المركز الذى شغلته المرأة
في الحياة المدنية ، فلم يذكر تاريخ تلك البلاد امرأة واحدة
تربعت على عرش أو كان لها في الاجتماع أثر ، اللهم الا
أريطى ابنة أرسطبس الفيلسوف التى حملت مشعل الحكمة
عن أبيها وسلمته الى الأخلاف ، وهيباشيا ابنة أبولونيوس
التي نشأت وترعرعت وماتت ضحية التعصب النصرانى في
الاسكندرية . وعقب على ذلك الزمن الرومانى وقد دخلت
مصر في حوزة روما في عصر بدأ فيه انحدارها ، وان كانت
عظمة يوليوس قيصر واغسطس قيصر ، قد حجبت عوامل
الفساد التى دبّت في جسم روما فترة من الزمن . وقد ظلت
مصر في حوزة الرومان سبعة قرون شهدت فيها الفساد يدب

في أخلاق الرجل والمرأة ، حتى أن كثيرا من نساء الأباطرة
كن خليعات ، وحتى أن الرجال ختموهن بالأقفال ، لشدة
ما استهانت المرأة الرومانية بعفتها • وجاء العصر العربى ،
وفيه رفعت المرأة الى مكانة لم تسم اليها من قبل فاعترف
لها بحق الحياة والملك والارث وعينت لها الشريعة مركزا
اجتماعيا لحظ فيه أن المرأة كائن بشرى حى على قدر
ما سمحت بذلك ظروف الزمان والمكان ، وانها ليست سلعة
تباع وتشترى • غير أن وراثه العرب القديمة ظلت بالرغم
من الشريعة الجديدة تؤثر أثرها في مركز المرأة ، فسلم الرجل
لها بكل ما نصت عليه الشريعة من الحقوق المادية ، وحرمها
من كل حق معنوى ، فأسرها في البيوت والقصور ورصد
لها العيون الرقباء وحرمها من التعليم ، وتزوج من أربعة
مع تحريم ذلك في معتقدى ، وتسرى بالكثير من الجوارى
والاماء ، واتخذ من المرأة الهية تلهى بها ، بل أنزلها الى
حيث أصبحت تسلية وقت الفراغ • وما العصر العثمانى
الا صورة من العصر العربى ، زيد اليه أن السادة الجدد لم
يكن لهم لغة ذات آداب تغلفت في حياة الفرد وفي حياة
المجموع شأن العرب ، فنزلت مكانة المرأة عندهم عما كانت
عند العرب درجات • ذلك بأن الأدب من شأنه أن يرقق
العواطف ويثير أمجاد النفس ويوحى بالجمال وحب الجمال
على اختلاف صوره مادية ومعنوية • ولقد كان لهذا عند
العرب أثر شمل المرأة فيما شمل من أشياء الحياة الاجتماعية •

عندما سقط الحكم العثماني كانت المرأة على ماصورت ،
وكان المجتمع المصرى على ما وصفنا • حياة مادية صرفة ،
احتكمت فيها الشهوة والأنانية ، وسادت فيها نزعات
القسوة ، وانتشر فيها الفساد والغى ، وتعطل القانون وحلت
محلة الارادات الفردية الاستبدادية ، واحتيل على الشريعة
بمختلف الطرق ، ونزلت مكانة المرأة الى الحضيض ، حتى
لقد يروى أن بيت القاضى ، وما يزال قائما بجدرانها حتى الآن ،
قد خصص فيه مكان لياشر فيه الرجال تنفيذ حكم الطاعة
عند صدوره اذا أراد ، اذ فهم من كلمة « الطاعة » ذلك
المعنى الذى تشمئز منه النفوس ، ويشعر المرأة بأنها تلك
السائمة المرذولة • ولا يزال هذا المعنى بعينه قائما فى أذهان
أولئك الذين يقولون « خلقت المرأة للبيت » ، وما يفهمون
من معنى « البيت » الا ذلك المعنى الذى فهم من « الطاعة »
فى بيت القاضى قديما •

حالة مات فيها الحب واستخفى الجمال وسترت الفضيلة
وجهها خجلا حتى لا يرى ممتقعا يقطر منه الأسى والألم •
واذا كان شأن المرأة فى ذلك الزمن قد نزل الى هذا الدرك
الأسفل من الحيوانية ، فعلى أى شىء تبقى ؟ على الحب أم على
العفة أم على الفضائل ؟ هنالك يستشرى حب الانتقام
وتنقلب كل الفضائل المعنوية ردائل مادية أساسها الخديعة
واللؤم والتفريط • وما كان شأن القصور فى ذلك الزمن
بأعلى شأنًا من بيوت الفقراء فى المدن وفى القرى •

نصف للذين يقولون « المرأة للبيت » حال المرأة في القصر
وفي القرية قبل النهضة الأخيرة ، وإبان الاحتلال البريطاني
وبعده بفترة طويلة • وإن المعاصرين لأصدق من يصف •

عاشت المرأة في ذلك العصر اما في قصر منيف واما في
حظيرة شيدة من لبنات الطين • أما الأوساط ، الذين هم لالا الى
القصور ولا الى الحظائر ، فكانت بيوتهم صورة مصغرة
من القصر ، ساد فيها كل ما كان يسود القصور في ذلك
الزمن من ستائر مسترخية على النوافذ وأبواب موصدة
على الحريم ، وعيون ورقباء تحصى على المرأة كل صغيرة
وكبيرة ، بل وكل حركة ، وإن شئت فقل كل خطرة أو كلمة
أو اشارة ، بريئة أو غير بريئة ، بل أحيطت المرأة بالجواسيس
والأرصاد ، الذين كان لهم أو كان لهن في تلك القصور
أو البيوت النفوذ الأعلى والكلمة المسموعة والارادة النافذة •
أما الحظائر المشيدة من لبنات الطين فما تزال حتى الآن
قائمة في القرى وفي كثير من احياء المدن ، الى جانب العمار
الحديثة ، فهي مشهد مألوف لأهل هذا الجيل • أما القصر
والحريم فقد أصبحا حديثا يروى • واني لأروى على القارىء
بعض ذلك الحديث :

كان القصر في ذلك الزمن حصنا هو بقية من الأشياء التي
املتها العقلية الاقطاعية • كان في مصر كما كان في أوروبا في

العصر الاقطاعى ، كتلة منفصلة عن النظام الاجتماعى السائد فى خارج أسواره • كتلة لها قوانينها الخاصة وشرائعها الخاصة ، بل لا ابالغ اذا قلت انها كانت دولة صغيرة فى جوف دولة كبيرة • سيده حاكم مطلق التصرف فى الأموال والرقاب ، كلا بل هو أمير لا تمتد اليه يد القانون ولا يأبه اذا أراد بشريعة أو عادة •

تشرف اذا أقدمت على أحد هذه القصور ، وكان أكثرها مقره القاهرة ، على باب ضخم رصع خشبه بمسامير من حديد غليظ ، فكان منظره يوحى اليك ، ولو من طريق الوعى الباطن ، بأنه شئ خارج على الطبع وعلى الضرورة • ويمتد من وراء ذلك الباب دهليز طويل مسقوف يسمى « السباط » وعند نهايته باب آخر يسمى فى العادة « باب الخوخة » ، هو الحد الفاصل بين دنيا الأحياء ودنيا الأموات • كان للأجنبى أن يدخل من الباب الأكبر ويقطع السباط الى باب الخوخة ، حيث يستقبله « الأغا » ليسأل عن شأنه • « والأغا » عند باب الخوخة حاكم بأمره مستبد برأيه • هو الحاكم الأعلى فى هذه الدنيا الصغيرة بعد سيد القصر • لا الفتى من أولاد سيد القصر ولا الفتاة له أولها حق الاقتراب من ذلك الباب السحرى الا بأمره • فاذا تجاوز الفتى سن العاشرة ، واذا وصلت الفتاة سن التاسعة ، فقد يعطى للأول بعض حرية المرور من ذلك الباب ، وأما الثانية فتدخل الحريم ، وهنالك يوصد عليها باب آخر هو باب « الحريم » •

ولا تقف سلطة الأغا أو الخصى عند حق التحكم في
الفتيان والفتيات ، بل ان سلطانه يشمل السيدات جميعا
بغير استثناء . أما الخدم والحشم والحاشية ، فهو المتصرف
فيها تصرف الحاكم المطلق الذى لا ترد له ارادة ولا ينقض
له رأى .

وما ذلك الأغا أو الخصى ؟ عبد خطيف من أهل الجنوب
احتزت مذاكيره ليكون صاحب القصر به في مآمن نزوات
نسائه !!! أية عقد نفسية تلك التى تقوم في ذلك المجتمع
الصغير ؟ خصى لاهو رجل ولا هو امرأة ، تعقدت نفسه ذلك
التعقد المرهق ، اذ يرى من حوله رجالا كاملى الرجولة
ونساء كاملات الأنوثة ، وهو في وسط ذلك كله كالغلطة
الحائرة على لسان البشرية . أما ما تحدث تلك العقد
النفسية التى تتولى مثل هذا الانسان ، فقلما يدركها الباحث
ادراكا حقا . ولكن ردها السريع فقد ينقلب اما الى
تعسف في استعمال الرخص التى يجيزها له صاحب القصر ،
واما الى تستر دنىء على نسائه .

وقد اعلم من عجائز روين لى وشهدن ذلك العصر ،
ان الخصيان كثيرا ما كانوا سعاة للبريد يحملون رسائل
الحب والغرام الشفوية ، أو يهيئون فرص الوصال بين محب
مغرم ووالهة متعطشة الى الحياة .

وما شأن المرأة في ذلك الحصن المنيع الذى يحرسه
خصى هو دونها أرومة ومجدا ، بل انه خادمها والمستبد بها

فى آن واحد ؟ آفة عقد نفسفة تقوم فى نفس المرأة فى مثل هذه البئة ، وآفة آحاسيس تتناوبها وآفة آيالات تساورها فى الليل وفى النهار ؟ ولا أظن أن مثل هذا قد ينتج آيرا . ولقد كان تتآجه أحد أمرين : اما افراط فى التشهى قد ينقلب ثورة آاجة تبحث لها عن منافذ بين نساء القصر أنفسهن ، أو استغراق فى التعبء هو فى آقيقته تعبير صارخ عن آلام نفسفة آبيسة .

— ٥ —

ولم يكن أثر الدادة ويقصد بها المربية بأقل شأنًا من أثر الأغا أو الخصى . فلئن كان الثانى حارس الباب ، فقد كانت الأولى منشئة النفس وآخلق .

والدادة أمة من أهل الجنوب ، وكن يجلبن من أقاصى السودان اما من كردوفان أو من منابع النيل يخطفهن نخاسون يتجرون بهن .

نساء من الأآراج والأدغال وليس عليهن من سيما المدينة الا اللباس الخارجى ، معدومات الثقافة محرومات من العلم ، شاهذهن على أنهن من بنات آواء انتصاب القامة لا أكثر ولا أقل . كل ما لدينهن من علم أساطير الشياطين والآجن ، وآرافات العقائد الموروثة .

وكان فتيات القصور مقسورات على أن يتلقين عن أولياء كل ما يتروذن به من علم وآدب وآخلاق . فاذا امتد أفق

صاحب القصر واستطالت خيالاته واتسعت آفاقه عهد بفتاته
الى شيخ من حفاظ القرآن يعلمها كيف ترسم اسمها ويلقنها
الألقاب ويحفظها بعض آيات من القرآن • فاذا بلغت الثامنة
أو التاسعة ، فقد بلغت سن الشك ، الشك في عفافها وصونها
وأخلاقها ، فتحبس بين جدران القصر ، ولا ترى نور الدنيا
الا اذا انتهته خلها ومن وراء حجاب •

ولقد حدث مرارا أن بعضا من أولياء المربيات ، وبالحري
الاماء المستعبدات ، قد أصبحن سيدات في تلك القصور ،
أو كبيرات الحريم ، اذ كان يتزوج من احدهن رب القصر
اذا مرض بمرض يطول أمده ، اعتقادا بأن حرارة نساء الجنوب
تخرج من الجسم أربعين داء الا داء واحد ، قد يكون هو
القاضى على حياته الثمينة ، فتصبح هى وأولادها منه ورثة
لذلك القصر وتلك الثروة الطائلة التى يخلفها •

كانت المرأة بين الأغا والدادة فريسة العقد النفسية من
ناحية وفريسة الجهل والخرافات وسوء الطبع من ناحية
أخرى • ولعمرك كيف تنشأ فتاة في مثل هذه البيئة وتسلم
أخلاقها من العطب أو يكون لها من تجارب الحياة ومعتك
العيش ما يرفع خيالاتها الى مستوى المثل العالية والآداب
الرفيعة •

تلك هى الصورة التى يتخيلها أولئك الذين يقولون ان
المرأة خلقت للبيت ، وذلك هو المثل أو القالب الذى يريدون

أن تصب فيه المرأة الحديثة في منتصف القرن العشرين •
يريدونها مخلوقا مترهل الجسم فاطر النزعات ميت الأحاسيس
مقموع العقل خائر النفس مكبوت العواطف • يريدونها غسالة
وطاهية ومرضعة وكناسة وحاملة قمامة من بيوت حضراتهم •
يريدونها حيوانا لا يختلف عن بقية عالم الحيوان الا أنها
ذات رجلين بدلا من أن تكون ذات أربع • يريدونها «حرما»
بالمعنى الذى عرف فى أواسط القرن التاسع عشر فى مصر
وفى غير مصر من بلاد الشرق •

- ٦ -

حقيقة واقعة أن المرأة فى ذلك العصر لم تكن انسانا بالمعنى
الذى نفهمه من كلمة الانسانية • كانت سائمة تمرح فى سجن
واسع الجنبات مع جملة من مثيلاتها كلهن ملك ليمين رجل
واحد هو سيد القصر • كان مثلهن كمثلى الحيوان :
هذا يسمن للذبح ، وتلك ترفه للمتعة الحيوانية والشهوات
الجسمية الدنيا • لم يكن للمرأة فى تلك القصور الا هذه
الوظيفة الواهية : تأكل وتشرب وتلبس وتنام الليل وقطعا من
النهار لتكون متعة للرجل •

قيل بأن قصر يلدز الذى سكنه عبد الحميد فى تركيا
القديمة كان يحوى قطعانا من الاماء البيض والسود ورعلانا
من الخصيان • وعليه يقاس بقية القصور فى تركيا ومصر
والشام والعراق وفارس والهند • نساء لاهن زوجات ولا هن

محدرات ، يلدن أولادا لا حق لهم في الحياة ولا أمل لهم في الدنيا ، فإذا مات صاحب القصر تفرقن أيدي سبا ، ورحن يلتمسن سيذا غيره يكن له سرارى أو حظيات • فإذا بلغ باحداهن الكبر انقلبت مستجدية تستندى الأكف ما لم يعطف عليها بعض المحظوظات من اترابها فيأوينها ثم يوارينها التراب اذا حدث بها حدث الموت •

يسود في مثل هذا المجتمع نقائص خلقية خسيصة • ذلك بأن استعداد المرأة ينقلب مسرحا لرذائل قد يمكن أن تنقلب مع الحرية والعلم فضائل رفيعة • فالمرأة التى لاهم لها في هذه الحياة الا أن ترضى شهوات الرجل ولها في ارضاء هذه الشهوات منافسات رسميات ، كيف تنصرف أحاسيسها الى ما هو فاضل أو رفيع من أشياء هذه الحياة • امرأة تعرف وتوقن بأن حياتها ومستقبلها وقف على أن تفتن في ارضاء رجل يشاركها في العمل على الاستئثار به عديد من النساء الأخريات لكل منهن نفس هذه الفكرة ، ويتجه كل همهن الى العمل على أن يكن اليه أقرب والى قلبه أحب ولارضاء شهواته أطوع •

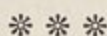
في مثل هذه البيئة تموت في المرأة كل المعانى السامية ويتعطل الفكر عن الامتداد الى تلك الآفاق التى خلق الفكر ليمتد اليها • وكذلك تموت في الرجل كل صفات الرجولية العالية • يموت فيه الأدب ويموت فيه العقل ، وترفع الخسة والشهوة رأسها الأقرن كأنها أفعى ناقعة السم •

رجل وامرأة : تتوقف حياة هذه على ارضاء شهوة ذاك ،
وتنصرف حياة ذاك الى الافتتان بالمتعة بمفاتن هذه . أكانت
حياتنا السابقة شيئا غير هذا ؟ وهل ينصرف المعنى المخبوء
وراء قول القائلين « خلقت المرأة للبيت » الى أبعد من
هذا كثيرا ؟

— ٧ —

في بعض تلك القصور لم يكن للمرأة مهما سمت مكاتنها
شرف الأكل على مائدة السيد الكبير ! فاذا تفضل وآكلها
تركت المائدة خاوية البطن لأنه من سمو الأدب أن تجوع من أن
تأكل في حضرته الا ما يسد الرمق امعانا في اظهار الخضوع
والانكسار والذلة . كيف لا وهى ملك يمينه ، فان كانت
من أولاد الأحرار ، فقد انتقل الى زوجها كل حقوق الأب
والأم والولد ، وأصبحت كأنها ملك يمينه . وكيف تستطيع
الفرار من ذلك السجن وكيف تستطيع أن تلجأ الى قانون
أو شرع ، وذلك أمر من المنكرات الفاحشة في ذلك الزمن .
فان نساء الطبقة العالية ، طبقة القصور ، قد أفهمن أن القانون
والشرع كلاهما لغو أمام ارادة الزوج . أما اللجوء اليهمادفعا
لظلم أو اقرارا لحق ، فتلك كبيرة الكبائر وطامة الطامات .
أتمثل الأسيرة المستعبدة أمام قاض وتدلف الى محكمة وتدلى
بحجة أو تقيم برهانا ؟ اذن لقد فسد الخلق وماتت الفضيلة
وقبرت العفة وهتك العرض واستبيح الخدر .

أليس هذا ما تريدون للمرأة أيها القائلون ان المرأة خلقت للبيت ؟ وماذا تعنون بكلمة البيت ، ذلك القدس الذى اتخذتموه كلمة حق أردتم بها باطلا ؟ وما هى الحدود التى تقيمونها لهذا الكلام الذى له خبىء ؟ انما يعسر على هؤلاء أن ينفكوا عما ورثوا من بالى التقاليد والعقائد والأفكار .



لم تكن ساكنة الحظيرة بأسعد حالا من ساكنة القصر . كانت فى الاغلب واحدة من أربع نساء يعشن فى حظيرة واحدة يخيم عليهن الذل والفقر والانكسار . كان السراى والحظيات من نصيب أصحاب القصور ، وكان الزوج من أكثر من واحدة من نصيب أصحاب الحظائر . غير أن ساكنة الحظيرة لم تكن سجينه . كانت تفرح على الخلجان والترع وتستمتع بضوء الشمس ونسيم الاصائل والأسعار . ولكنها كانت الى جانب هذا المرأة الجاهلة المستذلة . هى دابة الحمل التى تشارك الدواب عملهم اليومى .

وحقيقة الواقع أن ذبوع عادة الزوج بأكثر من واحدة كانت حاجة اقتصادية . وكذلك الاقلاع عن هذه العادة فى وقتنا الحاضر هى ضرورة اقتصادية . واذن فلم يكن اختفاء هذه الظاهرة راجعا الى استعلاء فى التصور أو رقى فى الفكر أو استنارة فى العقل أو رقة فى العاطفة .

فان مصر وهى البلاد الزراعية منذ أن دار هذا السيار حول الشمس ، قد احتاجت على مدار العصور الى اليد العاملة ، اذ كانت سعادتها ورفاهيتها متوقفة على الزراعة ، والزراعة قبل الانقلاب الاقتصادى فى أوائل القرن العشرين كانت قائمة على قوة العضلات تستغل أينما وجدت فى الحيوان كما فى الانسان . فكانت أكثر أسر الريف رفاهية وسعادة هى أكثرها ثروة حيوانية وبشرية . لذلك عمد الرجال الى التزوج بأكثر من واحدة طلبا للثروة والغنى عن طريق العمل العضلى ، فى الحقل وفى البيت . فلما وقع الانقلاب الاقتصادى وزاد التبادل التجارى بين مصر وأمم أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر ، حلت القدرة الاقتصادية فى الزراعة مكان القوة العضلية ، وأصبح كبر الأسرات عبئا بعد أن كان عوناً ، واضطر الرجل أمام هذا الأمر أن يقلل من عدد الزوجات ومن عدد الأولاد ، لأن ذلك أصبح مجلبة للثروة والرفاهية ، كما أصبح عكسه مجلبة للفقر والتعاسة .

فلا يستتجن أحد أن اختفاء هذه الخبيثة ، خبيثة التزوج بأكثر من واحدة ، قد كان عن تطور فى الخلق أو العاطفة أو الفكر بل كان تحولا ضروريا اقتضاه انقلاب اقتصادى بالغ الأثر فى حياة الأمة المصرية . وذلك عندى دليل قاطع على أن مركز المرأة الأدبى لم يسم فى عقليتنا ، وان كانت ظواهر الأشياء تدل من هذه الناحية على شىء من ذلك ، فانما تكون دلالة بالواسطة لا دلالة مباشرة . أما السبب الكامن فانقلاب الحياة من الوضع البدائى فى الريف الى الوضع الاقتصادى الحديث .

وكذلك يكون الحال اذا نظرت الى ظاهرة التسرى في القصور فان هذه الظاهرة لم تمت الا بموت الاتجار بالرقيق .
والحق أننا لم نبذل في القضاء على هذه التجارة المردولة أى جهد عملى أو فكرى ، بل جاءنا ذلك من غيرنا من الأمم وبخاصة بريطانيا التى قادت الحملة على تجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر حتى قضت عليها قضاء كاملاً . وان ذلك لمجدا لبريطانيا خالدا على الدهر .

فلو أن الحالة الاقتصادية قد ارتدت الى ما كانت عليه فى أواخر القرن التاسع عشر لعادت ظاهرة التزوج بأكثر من واحدة تغزو الريف ، ولو رجعت تجارة الرقيق لعاد التسرى الى ما كان عليه فى القصور . ولا أعتقد أن هذه العادات قد ماتت آثارها بالفعل فى نفس الرجال وانما هى اتخذت لباساً آخر لا ضرورة الى البحث فيه .

عامة ذا يدل على أن فكرتنا فى المرأة لا تزال من الغرارة بحيث لا نستطيع أن نقول اننا أدركناها ادراكاً يحى فى انفسنا الشعور بأننا نعطل نصف الأمة عن التطلع الى الحياة التى أضفتها الطبيعة على غير المرأة من الأحياء . بل على العكس من ذلك نعمل على أن نجعل نصف الأمة لغوا فى منطق الحياة ، ونجاهد المرأة حتى تظل حبيسة بين الجدران التى اسرت فيها الأزمان الطوال . أما الواقع فان المرأة قد أفلتت بالفعل من أسر الزجل ، لتصبح له شريكة بالعمل وبالرأى وبالعاطفة .
سنة التطور ولن تجد لسنة التطور تبديلاً .

الفصل الثاني

ملك المرأة مسألة نظرية - وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج
الجاهلية الأولى - بحث ذلك بالعقل لا بالنقل - توزيع العمل
وتقسيم الاختصاص في الحياة الحديثة - ما هو تبرج الجاهلية
الأولى - أصل البغاء شعيرة دينية - تبرج الجاهلية الأولى هو
غالبا المقصود بهذه الشعيرة - تبرج الرجل وتبرج المرأة -
كبت الاحاسيس خطر يجب اتقاؤه - حس الجمال في
حياة الرجل والمرأة - مستوى الأخلاق ومركز المرأة في
المجتمع - المرأة والدوافع الاجتماعية الحديثة .

- ١ -

جاء الاسلام بشرائع أقرت كثيرا من الحقوق التي أنكرتها
الشرائع التي سبقتها على المرأة . أقر لها حق الملك وحق الحياة ،
وعاملها على أنها كائن عاقل رشيد ، بقدر ما سمحت بذلك
مقتضيات الرقي الاجتماعي ، بل ان الاسلام فات في بعض
ما شرع للمرأة من الحقوق تلك المقتضيات بمراحل كبيرة في
بعض الاعتبارات .

لقد كانت المرأة في شريعة الجاهلية « شيئا » لا « كائنا
بشريا » . كانت تقتل خشية الاملاق وكانت تورث مع

ما يورث من المتاع والخطام • لم يعترف بأن لها عقلا
أو شعورا أو كينونة مستقلة تمثلها ارادة قائمة بذاتها ، فمحي
الاسلام ذلك بشرائعه الرائعة • ولكن ما أثبت الاسلام
للمرأة من الحقوق لم يعترف به البغاة الذين ورثوا جاهلية
القرون الأولى • لقد اتجروا بالنساء بيعا وشراء واستغلالا ،
وحرموهن حق التمتع بما يملكن من حطام الدنيا عقارا كان
أو مالا ، وردوهن شيئا من الأشياء • لقد أغروهن على الفسق
والفجور ، واسترقوهن واستعبدوهن ، فانتزعن انتزاعا من
أحضان الأب والأم والأسرة ليكن خادمت أو سرارى
أو حظيات أو مومسات ، وبعن فى الأسواق بيع السوائم
أو الأشياء •

لم يقف ذلك عند الزمن الذى عقب الجاهلية فحسب ، بل
انه انحدر مع القرون حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، فزالت
بعض آثاره وبقي البعض ، وما بقى من ذلك حتى الآن صورة
بشعة شنيعة ثقيلة على النفس •

لا نزال حتى الآن نلمس ونشاهد من آثار ذلك ما ينبغى
أن تضربه الحكومات الضربات القاصمات فان كثيرا من نساء
هذه البلاد لا يزلن مسترقات مستعبدات • فاذا مات أب
لاحداهن ، وبخاصة اذا كانت من طبقة دنيا ، وورثت عنه
أو عن امها أو عن قريب لها شيئا ، فانها انما تملك ماترث
اسما لا فعلا • فان لم يكن لها ولد ، أكلت حقوقها جميعا

عنوة واغتصابا ، كأن الاسلام لم يشرع للمرأة وكأن لم
يعتبرها كائنا بشريا . يأكل ذلك المال أقرب الأقربين لها .
يأكله أخوها أو عمها أو خالها ، ويرى الناس ذلك أنه طبعى
ولا خروج فيه عن دين و شريعة .

وجرت العادة حتى الآن على أن يحرم البنات من ميراث
الآباء . فاذا وهب الأب أو أوقف أو باع لأولاده ، خرج
بناته بخفى حنين، وخرج أولاده بغنيمة الأسد ، ظلما وعدوانا ،
هو أشد ما يروى من قصص الظلم والعدوان عند الله
والناس (١) .

فاذا خرجت المرأة بشيء مما تراث ومكنت من أن تملك
كما يملك خلق الله سقط عليها الزوج فكفها عن أن تكون حرة
التصرف فيما تملك . أليس الرجال قوامون على النساء ،
وأليس النساء ناقصات عقلا ودينا ؟

وانما تطبق هذه الأقوال بحرفيتها الآن كما طبقت
فى الأزمان الأولى . تطبق الآن بنفس العقلية التى سادت
من ألف وخمسمائة سنة ، يوم كانت المرأة بمقربة من حدود
الجاهلية . كأن العقل لا يتطور والآداب لا تتهدب ، وكأن
الانسان قد ظل طوال هذه القرون الكتلة الجامدة التى لا حياة
فيها ولا استعداد لها للارتقاء .

على أن هذه العقلية انما ينميتها ويزكيها ويقويها أولئك
الذين لا يدركون أن الأرض قد دارت من حول الشمس
ألفا وخمسمائة مرة ، وأن العقل قد انفلت من أقطار تلك

(١) كان ذلك قبل صدور القانون الجديد

العقلية القديمة وأن خطى التطور التى ساقى أمامها حتى
الجمادات ، قد ساقى معها الأحياء أيضا ، فغيرت من آدابهم
وآرائهم وطرائق حياتهم ، وانها انتقلت بالانسان من ذلك
الافق الموحش البغيض الى أفق النور والعرفان والحرية •

— ٢ —

لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام
سلطت عليهم ، أو رغبة فى بسط سلطانهم على النساء حبا
فى الاستعلاء الكاذب أو التسلطية الممجوجة ، من بضعة
نصوص أشير بها الى حالات قامت فى عصور غابرة ، سيلا
الى استعباد النساء استعبادا أبديا • لقد حضت المرأة فى ذلك
العصر أن تقر فى بيتها وأن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى •
أمران اقتضتهما ظروف وحالات قامت فى ذلك العصر ،
وكان ذلك ولا شك فى صالح المجتمع وفى حدود الأدب
المرغوب فيها ، فى حدود الحالات الاقتصادية والمعاشية التى
اكتنفت الناس اذ ذاك •

أما الحض على أن تقر المرأة فى بيتها فليس معناه أن
تسجن فيه وأن تكون فيه رقيقة مسلوبة الحرية مسلوبة
من كل معنى من معانى الحياة • ولكن معناه الصحيح أن
البيت هو أقدس الأشياء ، وانه السكن والمأوى ، وانه صومعة
السعادة والحب ، وانه المصنع الذى تنشأ فيه وحدات الجمعية
فى المستقبل •

معناه أن البيت ينبغي أن يكون له المقام الأول والمكانة العليا . معناه أن لا تتسكن في الأسواق ، إذا لم يكن لكن حاجة تقضيها ، أو متلماً لتلتمسه . ونحن نعلم أن حياة المرأة في الجاهلية كانت حياة الفراغ والملل ، على العكس من حياة المدنية الحاضرة ، فقد زادت واجبات المرأة نحو بيتها وزوجها وأولادها ، كما أن هذه الحياة الحديثة قد أحدثت نوعاً من التخصص جديد فيما ينبغي أن يكون من شئون الرجل ، وفيما ينبغي أن يكون من شئون المرأة .

لقد قسمت الاختصاصات في المدنية الحديثة ، كما وزع العمل بين القائمين به ، حتى أصبح ذلك طبعاً ثابتاً للحياة الجديدة . فهل في مستطاع الرجل في هذه الحياة التي نعيشها ، أن يسعى لعيشة ثم يقوم بجميع واجبات المرأة في خارج البيت ؟ هل في مستطاعه أن يرعى الأولاد في روضة الأطفال وأن يشتري لهم ما يلزمهم من الأطعمة والاكسية ، وأن يقوم بما يجب لهم من رياضة العقل والبدن ؟ هل في مستطاعه أن ينفق الوقت الذي يكسب فيه رزقه ورزق أولاده في شراء ما يلزم للبيت من مختلف الحاجات ؟ اذن فكيف يقرن في بيوتهن وقد فتحت عليهن الحياة الجديدة ألوفاً من الواجبات وضروباً من المهمات وعوالم من الضرورات لم تعرف منها المرأة في العصر القديم شيئاً ، ولا عركت منها أمراً .

وإذا كانت الحياة نفسها قد تطورت وانقلبت أوضاعها ،

فكيف يتخيل هؤلاء الذين يريدون أن تسجن المرأة في البيت، أن يوفقوا بين حاجات الحياة الآن ، وبين تلك الخيالات التي تساورهم ؟ أفي استطاعهم أن يرجعوا الحياة الانسانية الى ما كانت عليه قبل عشرين قرنا من الزمان ؟ اذا كان ذلك في استطاعهم فليفعلوا ، وهنالك تكون شريعة الآداب قاضية على المرأة أن تقرر في البيت ، وعلى الرجل أن يعيش عيش الغزو والصيد والقنص ، والا فلسنا نطالبهم بشيء أكثر من أن يدركوا بعضا من حقائق الحياة •

— ٣ —

ان المعنى الذي يستخلصه أصحاب الرجعية من حض المرأة على أن تقرر في البيت ، معنى غامض كل الغموض في هذا العصر • وبالرغم من ذلك الغموض الذي يكتنفه ، فانهم لا يريدون أن يفسروه حتى تتحدد المعاني القائمة في نفوسهم منه •

أما اذا أرادوا أن تكون المرأة سجين البيت ، فكيف يوفقون بين هذا المعنى وبين حاجات الحياة العصرية ؟ واذا أرادوا أن يكون تفسيره أن تقرر المرأة في البيت اذا لم يكن لها ما يشغلها في خارجه ، فذلك هو الواقع في حياتنا الحديثة؟ أما أن يتخذ الحض على أن تقرر المرأة في البيت على ظاهره من غير أن يفسر تفسيراً يلائم حاجات الحياة العصرية ، فذلك أمر هو فوت قدرتهم ، بل أن الزمن قد محاه محوا وحطمه

تحظيما ، حتى لقد يظهر استمساكهم به كأنه الرقعة البالية
في الثوب الجديد الذي يروقك حسنه •

وكيف يوفقون بين هذا وبين الحض على تعليم المرأة
واختلاط الفتيات بالفتيان في دور العلم ؟ بل نسألهم لماذا
يعلمون بناتهم ؟ بل لقد رأيت بعيني رأسى بنات شيخ من أوقر
شيوخ الأزهر يلبسن الملابس القصيرة ويركبن الدراجات
ويخالطن الشباب وقورات عفيفات ملتزمات حدود الأدب
العالي متعظات بالحكمة مؤتمات بالموعظة الحسنة ، فهل كان
ذلك عن استمساك بما استمسك به الأوائل ، أم عن خضوع
لروح العصر ومقتضيات الحياة ؟ أما أن تتهم ذلك الشيخ
الوقور ، بأنه كان يقول باللسان ما ينكره القلب ، فذلك أمر
ترك الحكم فيه لأسيادنا الرجعيين •

لقد غزت المرأة كثيرا من ميادين الحياة ، وزاحمت الرجل
فيها بالمنكب والذراع • أصبحت المحامى المدره والطبيب
النطاسى والمعلم الماهر والفنان الموهوب والمربي العطوف
والممرض الحنون والتاجر اللبق ، فكيف نطبق على حياة هذه
صبغتها ، صبغة حياة أولية بدائية ، بسيطة التركيب ،
لا تعقيد فيها ولا توزيع لاختصاصات العمل ؟ أم نريد أن
نهدم كيان المجتمع الجديد استجابة لتصورات هى وليدة
عصر باد ، وعهد غير ؟ وما أثمن قول القائل : « لا تطبعوا
أولادكم على أخلاقكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » •

معنى ما تقدم أن المرأة كانت تعيش من قبل على هامش الحياة ، والآن وقد أخذت تعيش فى صميمها وتغزو نواحيها الشتيتة ، فان الرجعيين يحاولون أن ينكروا عليها هذا الحق ... ولماذا ؟ ولأية ضرورة ؟ انهم يعجزون عن الاتيان ببعض الحجة ، لا بحجة كاملة .

ولقد يخيل الى أن انكارهم ذلك الحق ليس براجع الى اقتناع بحقائق ثابتة أو منطق صحيح ، والا فليصوروا لنا مجتمعا حديثا تحرم فيه المرأة حق العمل وحق التفكير وحق الخصام فيما لها من لبانات وحاجات ، كيف يكون ، وكيف يدرج وكيف يضرب فى معارج الفلاح والرقى ؟

يحمل هؤلاء على التمسك بالقديم بأشياء عزيزة عليهم . وانها لعزيزة علينا ولا شك . ولكن اذا اختلف ما هو عزيز عليك مع الحق والواقع ، فأيهما أولى بالاغزاز وأيها أولى بالمحبة ؟

— ٤ —

يقترن مع الحض على أن تقر المرأة فى البيت ، حضها على أن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولا شك فى أن الحض على ذلك مما تأمر به شريعة الآداب العليا التى تملئها على الانسان أثمن مشاعره وأعلى عواطفه المثالية .

ولكن المصيبة التى أصابنا بها أولئك المستغرقين فى النظر فى الحياة بمنظار الحياة القبلية البدائية ، أنهم يعتقدون أن كل

تجمل تبدو به المرأة هو تبرج وأنه تبرج الجاهلية الأولى •
ذلك في حين أن كلمة « التبرج » ليس لها حدود التمرينات
الرياضية ، وفي حين أنه لم يصلنا عنهم وصف شامل لتبرج
الجاهلية الأولى !!!

والمرأة على هذا النص غير ممنوعة من التبرج ، اللهم الا
تبرج الجاهلية الأولى ، وهو ضرب من التبرج لا ندركه
الاظنا ، غير أن هذا التبرج له احتمالان : فاما أن يكون
المقصود به اشارة عامة الى عدم الخروج بالزينة عن الحدود
التي تحفظ على المرأة كمالها ووقارها ، واما أن يكون تعيينا
لحالة مادية كانت تمارس في الجاهلية الأولى •

ولا شك في أن التبرج بما يهدر كرامة المرأة وحشمتها أمر
ممجوج ينبغي الاقلاع عنه ، لأنه فضلا عما فيه من احتقار
لأذواق الناس ، فانه يشير الى معان خفية في نفسية المرأة ،
وهي ليست من معانى الكمال أو الفضيلة في شيء • هذا اذا
قصد بالتبرج في النص الكريم اشارة الى عدم الافراط
في الزينة ، بما يتجاوز حدود العرف المألوف • أما اذا كان
المقصود به شيئا ماديا بذاته فغالبا الظن ، بل الأرجح تغليباً ،
أن المقصود به عادة ألفت في الأزمان الأولى ، كانت في نشأتها
شعيرة من شعائر الوثنية ، أى شعيرة دينية •

فان البغاء على ما يعرف الآن من تاريخه وتطوره ، قد نشأ
في أوله نشأة دينية ، فكان شعيرة من شعائر التقرب من الآلهة ،

وصورة من التضحية يقصد بها العبادة • ثم تقلب في أدوار
آخرها ما نعرف منه في زماننا هذا ، اذ أصبح نفس ما تعترف
به الحكومات وتنظمه وتضع له التشريعات المختلفة ، وتراقبه
من نواحيه الاجتماعية والصحية •

والبغاء في حقيقته استجابة لنداء الجنس • وهو فضلا
عن ذلك له مظاهره النفسية • فان تحول الغرائز يلعب فيه
دورا كبيرا • حتى لقد نرى أن ممارسة هذه المهنة تنسى
ممارستها أصلها الطبيعي ، لتحل محله فكرة الكسب من
طريق استفزاز الغرائز الجنسية • وهذا بحث ليس من شأننا
هنا أن نمضي فيه ، وكفى بنا أن نقول أن ما قصد بتبرج
الجاهلية الأولى هي هذه الحالة التي سنشرحها ، أو حالة
تقاربها •

ان الحاح الغريزة الجنسية ، كالحاح جميع الغرائز ، مبعث
للألم • وقد يتفاوت هذا الحاح عند الأفراد بحكم الاستعداد
الطبيعي واختلاف التكوين • ولما كانت طبيعة الانسان
الخالصة من العمل تدفعه الى نشدان اللذة والفرار من الألم
فقد نزع الانسان الى أن ينشد الشبع والصحة والقوة ،
وأن يفر من الجوع والمرض والضعف ، ولذا كانت المبرات
والصدقات مما يتقرب الى الله ، فاطعام المسكين والفقير
وابن السبيل ، وعلاج المريض ونصرة الضعيف مما حضت
عليه جميع الأديان زلّفى الى بارئ الأشياء • وما هذه الأشياء

في أصلها الا ابتغاء أن يكفى الغنى والقادر ، الفقير والمعدوم
والمسكين ، الحاح غرائز الطبع التى تحدث تلك الآلام التى
يفر منها الانسان . ومن هنا نشأ نظام البغاء نشأة دينية ،
على اعتقاد أن ارضاء غريزة الجنس هى دفع لألم يباشره
الحى ، فهى اذن صدقة يتقرب بها الى الآلهة .

على مفترق الطرق ، وفي السبل الموحشة التى كان
يخترقها حمالو المتاجر والمسافرون ، وكانوا يتنقلون عادة
جموعا من الرجال بلا نساء ، اتخذ بعض المتعبدات صوامع
ليبدلن للمسافرين أنفسهن ولحومهن طردا للاحاح الغريزة
الجنسية المؤلمة ، صدقة لوجه الآلهة وتقرباً اليهم وتعبداً
لهم ، على نفس الصورة التى يتقرب بها مشبع الجوعان ،
ومعالج المريض ، ومعز الذليل ، ومؤوى المسكين ، الى خالقه .
وأكاد أو من بأن النص الكريم انما انصب أصلا على
هذه الحال أو على حال تقاربها . ومما يدل على ذلك أن النص
قد أشار الى تبرج الجاهلية « الأولى » ، أى جاهلية سبقت
الجاهلية التى تقدمت الاسلام مباشرة ، وهى التى مورس
فيها هذا الضرب من التعبد .

من هنا نجد أن هذا النص قد انصب على حالة معينة
كانت قريية عهد من العرب عند انتشار الاسلام ، فحضر
على عدم الرجوع اليها لأنها منافية لآداب الدين القيم .
واذا صح ذلك وجب أن لا نحتج بهذا النص فى هذا

العصر باعتباره نصا منطبقا على حالة واقعة بالفعل ، والتطرف
فى ذلك الى حد القول بأن كل زينة تتزينها المرأة هى تبرج ،
وانها من تبرج الجاهلية الأولى •

بل ينبغى لنا فى جميع هذه الحالات وما يقاربها من الأشياء
التى لا ندركها ادراكا يفصح عن جميع ملابسها أن نلجأ الى
التاريخ والمدونات والروايات المأثورة لنعرف الى أى حالة
تشير ، والى أى ملابس ترمى •

— ٥ —

يخلق الرجل ذقنه ويسوى شاربيه ويفتلها ، ويمشط
لحيته ان كان ذا لحية ، ويصفف شعره تصفيفا يتخذ له
مختلف الوسائل ، ويتأق فى ملبسه وفى وضع طربوشه ،
ويلمع حذاءه • فاذا كان شيخا اتخذ من لف عمامته صورة
تلائم ملامح وجهه ، واختلاف أشكال العمام ، هو فى الواقع
بقدر اختلاف الوجوه والسمات • كل هذا ويقول الرجل
انه لا يتبرج •

بل ان الخلاء والمشية وطريقة الكلام التى يلازمها الرجل
هى فى الواقع أشياء ان أتها المرأة ولزمتها قيل أنها تتبرج •
ذلك بأن التبرج عندى ليس مقصورا على الملبس وحده أو
ابداء المحاسن ، بل هو فى الدلال أيضا وفى اللمحة العابرة
وفى الابتسامة وفى نبرات الحروف وفى طريقة الأداء • فهل
من رجل يخلص من تلك الظواهر ؟ فلماذا يكون هذا حالاً

للرجل حراما على المرأة ، الا أن نكون ظالمين فنخصصهن بتبرج
الجاهلية الأولى ، أى برذائل تلك الجاهلية ، ونبرىء نحن
الرجال أنفسنا من جميع ذلك ؟

الحق الواقع أن ماندعوه تبرجا بالمعنى الحديث ، لا بالمعنى
الذى تخيلناه من حياة الجاهلية الأولى ، انما هو أمر طبيعى
له أصل ثابت فى الفطرة • ذلك الأصل الذى عبر عنه
الاحيائيون بأنه من « الصفات الجنسية الثانوية » ^(١) • وهى
الصفات التى تجذب المرأة للرجل ، وتجذب الرجل للمرأة ،
ان جسدية أو معنوية • واذن فلا فرار من التبرج أيها
الأسياذ •

ان كبت هذه الأحاسيس ، لا يقتصر أثره على تحولها
من غريزة طبيعية الى رذيلة اصطناعية وهو ما يجب أن نحاربه
ونقضى عليه ، بل ان أثره يتعدى الى حس الجمال نفسه ،
فيضعفه ويوهنه ، ويحوّله من حاسة معنوية الى حاسة
جسدية •

ان أول أثر لحس الجمال فى الحى العاقل أن يشعر أنه
جميل ، فان لم يكن جميلا اجتهد فى أن يتجامل بمختلف الطرق
وشتى الوسائل • وأكثر الرجال هم من الدمامة بحث
يحاولون أن يخفوها بالتجمل وانما هم يفعلون ذلك فرارا
من ألم الشعور بأنهم بعيدين عن الجمال • بل قد تحايل الرجال

على ذلك ، كما تحايل النساء أيضا ، فقالوا ان الجمال جمال الخلق والصفات • بل انحدر بعض الناس الى القول بأن الجمال فى « الجيب » أى فى المال ، وفى عدد الأوراق المالية التى يملكها أشمط بين العورات • وهذا ولا شك أخط معنى يدرك من ناحيته الجمال •

ولا شك فى أن للخلق جمالا رفيع المنزلة ، ولكن الطبيعة قد دعت الحى العاقل أول شىء الى نشدان الجمال الظاهر لا الجمال الخفى • فان هذا الضرب من الجمال مقدم عند الأحياء على غيره • وهو مقدم عند الرجال وعند النساء معا • فلماذا ننكر على المرأة نفس الفطرة التى نقول أنها فضيلة فى الرجل ؟

ان أساس الاختيار عند ربط العلاقات الزوجية ، انما هو للجمال الظاهر لا للجمال الخفى • ولهذا لعب الجمال الظاهر دورا عجيبا فى الانتخاب الجنسى ، وفى الصفات الجنسية الثانوية • فامرأة جميلة الوجه سوية التقاطيع ، هى أروج ألف مرة فى سوق الزواج من أخرى كريهة المنظر سامية الأخلاق • ولا شك فى أن ذلك منقصة من مناقص الطبيعة ، ولكن هكذا شاءت الطبيعة أن تكون • كما شاءت أيضا أن يكون لصفة الجمال الظاهر اليد العليا فى الانتخاب الجنسى على مدى قرون طويلة ، فواصل الجمال الظاهر شوطه نحو الاكتمال ، وتخلف الجمال الخفى ، جمال الخلق

والصفات النفسية أن يلاحقه ، فتخلف وتخلف الأخلاق
والفضائل •

هذه حقائق لا تنكر • فغفوا أيها السادة الذين يريدون
أن يعطلوا الطبيعة بمجرد الكلام •

والجمال الظاهر شيء ملموس مدرك بالحواس • في حين
أن الجمال الخفى شيء مدرك بالتصور • والنوع البشرى في
حقيقته من الكائنات المادية ، يؤمن باللذة والألم اذا كانت
آثارها مادية ، ولكنه قلما يؤمن بها اذا كانت آثارها معنوية •

فهل نريد المرأة أن تخلص من جميع هذه الوراثة القديمة
التي نشأت مع الفطرة ، ولا نقف عندها بل نبيح للرجل أن
يطلق لهذه الوراثة العنان غير محاسب ولا خجل ، فلنا منا
بأننا ننصر الأخلاق وتؤيد الفضائل ، وأن نفرض تلك القيود
الحديدية الثقيلة ، ولكن على المرأة وحدها دون الرجل ، عادين
ذلك من النزوات اذا صدر عن أنثى ، وانه من الفضائل اذا
صدر عن ذكر ، كأن الطبيعة عندما أنشأت الذكر والأنثى
قد فصلت بينهما بذلك الصدع البعيد الذى يخيل لبعض
السادة أنه طبيعى ، وما هو بطبيعى ، وانما هو من خلق
الرءوس التى فرت من حقائق الطبيعة وانزوت تحت الأحجار
حتى لا ترى ضوء النهار !!!

- ٦ -

يحاول أولئك الرجعيين أن يصدوا التطور عن

سبيله المحتوم • فان من شأن تطور الأشياء ، مادية ومعنوية
أن يجعل لكل عصر مستوى خاصا ، ماديا وخلقيا • ويختلف
ذلك المستوى باختلاف الجماعات ، ولكن لكل عصر طابع
عام هو الذى يعبر عنه بالرأى العام • وهو تعبير ان كان فيه
غموض ، فان له حقيقة لا تنكر •

الكلام فى الفضيلة وفى مكارم الأخلاق ، أشياء ينبغى لنا
أن تفصل عند بحثها بين ناحيتها : النظرية والعملية • أما
الناحية النظرية فهذه تتركها للبحوث الفلسفية والمثالية •
تتركها لأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطيس وكنت
وسبينوزا • أما الناحية العملية فهذه ما يجب فى بحث كهذا
أن نولى عنايتنا ونخصه بتفكيرنا •

على أن الناحية النظرية لا تفصل عن الناحية العملية فى
الأخلاق ، من ناحية أننا نتخذ من الناحية النظرية مثالا
للمستوى الأعلى للأخلاق ، نقيس عليه المستوى
العام لفكرة الفضيلة فى عصر من العصور أو فى جماعة من
الجماعات • فاذا وصفنا عصرا بأنه عصر فضيلة ، أو قلنا ان
جماعة من الجماعات فيها فضائل ، فانما نقيس الفضيلة هنا
على المثال الأعلى الذى ندركه منها • وما المستوى العام غير
الدرجة التى تبلغها الفكرة فى الفضيلة قريبا أو بعدا من ذلك
المثال الأعلى •

على أنه لا ينبغى أن نزن أن ذلك المثال الأعلى ثابت

ثبات الأشياء الجامدة فانه متغير ، تؤثر فيه الظروف والحالات بطرق بعيدة عن أن تحقق التحقيق الكامل . شأنه في ذلك شأن جميع المجردات الفلسفية . وقلما اتفق الناس في كل العصور على مثال بعينه هو المثال الأعلى للفضائل والأخلاق . ولكن ذلك كله لا يمنع أن يكون هنالك مثال لها ، هو المقياس الذي تقاس عليه ، والميزان الذي توزن به الفضائل في كل عصر .

إذا خضعت الناحية النظرية في الأخلاق للفكر المجرد ، فإن الناحية العملية منها انما تخضع لضرورات الحياة وظروفها القاسية . ولنضرب لذلك مثلا أو مثالا :

جمعية بشرية عدد أفرادها مئة منها تسع وتسعون فضلاء ورذل واحد ، أو ثمانون في المئة أتقياء وعشرون في المئة فاسقون . هذه جمعية فاضلة حسنة الأخلاق . لأن الواحد في النسبة الأولى مضطر أن يكون فاضلا والا نبذته الجمعية ، فهو فاضل رغم أنه . أما العشرون الآخرون في النسبة الثانية فمضطرون أن يكونوا أتقياء ، والانبذوا وطردهوا . ذلك لأن المجموع الأكبر من الجماعة المتصف بصفات متقاربة ، هو الذي يشرع للجمعية ، وله في هذه الحال حق الأقوى في فرض ارادته .

وعلى عكس هذا تماما يكون الحال لو أنك قلبت النسبة ففرضت واحدا فاضلا يعيش مع تسع وتسعين رذل ، أو

عشرين تقيا يعيشون مع ثمانين فاسقا • لاشك في أن المستوى العام للفكرة الأخلاقية تكون هي بذاتها ماتدرك الأغلبية منها • وعندى أن هذا هو مايعنى بمستوى الأخلاق •

لا ننظر في ذلك الى الشرائع ولا الى القوانين ، فهذه يعطلها العرف العام ويقمعها الاتجاه الخلقى في الجمعية • وهذا الاتجاه من الأشياء التى لا نعرف كيف تتولد ولا نستطيع لهذا التحكم فيها • وانما هو وليد ظروف وحالات اجتماعية تصدر عن أعمق ما فى الجمعيات البشرية من الأحاسيس والانفعالات • فللحروب والثورات والانقلابات العامة أثرها الواضح فى خلق تلك الاتجاهات • ولمطلوبات الجسم والروح فيها الأثر الكبير الذى لا ينكر • وكذلك تغير الفكر والعاطفة والعقيدة الأثر الثابت فى خلق هذه المتجهات • وانما تساق الجمعيات البشرية فى سبل لا اختيار لها أن تنساق فيها ، وهى فوق ذلك لاتستطيع أن تمنع وقوعها ، وغاية ما فى استطاعها أن تحولها بعض الشيء لترضى نزاعاتها ، وذلك بتعديل بين القوى الجديدة التى تخلق تلك الاتجاهات وبين ما تحتمل النفس البشرية منها •

لا نستطيع مثلا أن ننكر أن الانقلاب الاقتصادى الحديث قد حور من المتجه الأخلاقى فى الرجل والمرأة ، وان المثل الذى قيست عليه الأخلاق قبل قرن من الزمان ، ليس هو بعينه المثل الذى تقاس به الأخلاق الآن • وجل

ما في الأمر أننا نشعر بأننا تتغير ، وأننا مقسورون على أن تتغير ، وانا فوق ذلك نعتقد أننا نتقدم وأننا تتبع سبيل الرقى .

ولا يعنينا من ذلك أن يكون ذلك التغير قد وقع بمجهود المرأة ، وانما يعنينا من الأمر أنه وقع ، وانه مائل بالفعل .
يعنينا أنه أثر في مركز المرأة الاجتماعي ودفع بها الى الحياة الصاخبة ، وحملها على أن تعمل وأن تكد وأن تتعلم ، وحفزها الى أن تنشد الاستقلال وأن تكون سيدها نفسها في حدود الآداب المرعية في عصرها .

لقد قذف بها في المعترك رغم أنفها ورغم أنوفنا ، أحببنا ذلك أو كرهناه . ولسوف تضرب المرأة في سبيلها غير ملوية على شيء ، فان ثورة فكرية قد حصلت فعلا ، وانقلابا جديدا قد لاحت بوادره في الافق . فعلينا أن ننظم عوامله ونوجهها الى خير الجمعية ، لا أن نقف في سبيله محاولين أن نغير متجه التيار عن طريقه الطبيعي . فان ذلك قد يجعله ينحدر الى وهاد لا ينتفع به فيها .

أما الذين يقفون الآن في سبيل حق المرأة في الانتخاب والتمثيل ، فمثلهم كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

يعلمون البنات ويعرفونهن الحرية والحقوق التي تترتب على الحرية ، ويدفعونهن الى معترك الحياة العملية ، ويأثفون

أن يكن جاهلات خاملات ، ويسوقونهن الى ملاعب الرياضة
والى الأسواق ، والى الكليات والمدارس العالية ، ثم يقولون
لهن انكن لا تساوين الكناس والزبال والجاهل والأحمق
ممن لهم حق الانتخاب والتمثيل •

اليس هذا بعينه مطلب من اراد أن يبنى هرما يرتكز
على قمته لا على قاعدته ؟

الفصل الثالث

المرأة نصف انسان فى الاسلام - لقد حان الزمن لأن تكون انسانا كاملا - تعليم المرأة فى القصور القديمة - نتائج ذلك التعليم - دخول المرأة ميدان المعرفة الحديثة وأثره فى النهضة - التحول الاقتصادى وأثره فى مشكلة المرأة - الحرمانات التى نزلت بالمرأة فى الماضى القريب - الجاهل والجاهلة والمتعلم والمتعلمة فى حق الانتخاب والتمثيل - تأثير المرأة فى الفكرة السياسية وفى خلق الرجل اذا اقتحمت الميدان السياسى .

- ١ -

لم تكن المرأة عند أكثر الشعوب قبل الاسلام شيئا يذكر . كانت الملك الذى يتصرف فيه المالك كيف يشاء ، تباع وتشتري وتورث مع ما يورث الحطام لم يعترف بها بحياة خاصة ، بل ان حياتها كانت بالتبعية لحياة الرجل . فلما جاء الاسلام رفعها وأيدها وأخذ بيدها ، فاعتبرها نصف انسان ، فشهادة امرأتين بشهادة رجل ، ونصيب الرجل فى الميراث بنصيب امرأتين .

ولا شبهة مطلقا فى أن ذلك كان طفرة فى العصر الذى نزلت فيه الشريعة الاسلامية بل اننا لا نبالغ انه كان أكثر من طفرة . لقد كان ثورة على الأوضاع الأولى ، واتقلابا لا نظير

له في تاريخ البشر • وأى انقلاب يصيب العرف الجماعى أشد
من ذلك الانقلاب الذى يجعل المرأة نصف انسان ، وكانت
من قبل سلعة لا قيمة لها • سلعة حرمت كل معنى من معانى
الوجود • الوجود الذى أضفته الطبيعة على الذوات العاقلة •
ألم تحرم حق الحياة فوئدت في الجاهلية خشية الاملاق ،
وخشية العار ؟

كان الرجل في ذلك العصر هو الانسان الكامل وحده
لا شريك له • كما اعتقد الانسان في العصور الوسطى انه
مركز الكون وانه الخلق المختار من الله وان العالم خلق من
أجله وان جميع المخلوقات قد سخرت له ولذلك وضعه الله
في وسط الكون لأنه أشرف ما خلق وأنبل ما برأ ، كذلك
اعتقد الرجل انه مركز الخلق البشرى فهو الذى يملك كل
شئ ومن أجله خلق كل شئ بما في ذلك المرأة • اعتقد انه
المحور الذى تدور من حوله الانسانية ، وان الانسان محور
الكون ، وانه ليس بينه وبين الالهية الا خطوة قصيرة •
الم يدع انه آله يعبد وانه القادر على كل شئ ؟ الم يرفع
بصلفه بعض النساء الى رتبة الألوهية كبرا وعتوا ، لأن الآله
لا يجب أن يتخذ الا آلهة صاحبة ؟

بهذه العقلية ، وهى عقلية كانت طبيعية ومقبولة في تلك
العصور ، تحكم الرجل في الدولة والأسرة والمرأة • كان
ذلك في عصر التكثير ، أى تكثير الآلهة • وكان من الطبيعى

أن الرجل الذى يرفع الى رتبة الآلهة وفى مقدوره أن يرفع المرأة بعد أن يتأله الى منزلة الآلهات ، تلبسه فى مثل هذه الحال عقلية هى عجيبة العجائب •

فلما جاء الاسلام وثبت من اصول التوحيد وعزز هذه العقيدة تعزيزا لم يشهده تاريخ الناس من قبل ، عطف الى ناحية المرأة فاعتبرها نصف انسان ، وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذى لا يزال حتى الآن موضع انبهار كل المشتريين • فقد جاء الاسلام بذلك الشرع فى عصر أظلمت فيه جوانب النفس والعقل ، وأسفت النزعات واحتكمت الشهوات وتسودت النزوات ، فكان عليه أن يقضى على جميع ذلك ، وأن ييشر بالشرع الجديد فى أمة عرفت بالجاهلية ، ليكون نبراسا تستضيء به الأمم وتأتهم به الشعوب •

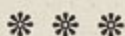
ان ما جاء به الاسلام من شرائع فى المرأة ، كان أبلغ ما يمكن أن تصل اليه الطفرة فى عصر هذه صبغته • أما الذين يقولون بأن الاسلام لم يعط المرأة حقها الكامل فمخطئون • لأن الاسلام فى الواقع قد أعطى المرأة أقصى ما يمكن أن تعطى ، بل انه تطرف فى عطاؤها ، مع اعتبار حاجات الزمان والمكان ، ومؤثرات البيئة والعقلية •

غير أن خمسة عشر قرنا من الزمان كافية فى الواقع لأن تهيب العقلية الانسانية الى خطوات أخرى فى التشريع للمرأة •

ولقد وضع الاسلام مبادئها الأولية وأقر أسسها فى قواعد عامة ، هى فى الواقع لب الاسلام وروحه . فان الاسلام دين الفطرة أى دين التطور لا دين الجمود ، لأن الفطرة من خصائصها أن تتطور وتتشأ ، ومن طبيعتها أن تتغير بتغير الزمن والوضع والحالات المحيطة بالجماعات ، واذن وجب أن ننظر فى كل تشريع ، وبخاصة ما اتصل من ذلك بالمرأة ، هذه النظرة الواسعة الشاملة ، نظرة اننا ينبغى أن نشرع لها مؤتمين بالمبادئ لا بالنصوص ، اذا ما بدا فى افق التطور ما يدفعنا الى ذلك احتفاظا بكيان الأمة وتكافلها الاجتماعى . ومن هذه الناحية لا أرى ما يمنع مطلقا من أن ترفع المرأة الى منزلة المساواة بالرجل فى جميع الحقوق المدنية والسياسية : فى الميراث وفى قبول الشهادة وفى العمل وفى الاستقلال الفكرى والاقتصادى ، وبالجمله فى جميع الأشياء التى تكمل بها انسانيتها . ذلك بأنها انسان .

- ٢ -

تقدم بهذا لأن الكلام فى طبيعة العصر الحديث يقتضيه ، ولأن التطور الاجتماعى قد وصل حدا أصبح معه التفكير فى أمر المرأة من هذه الزاوية ضرورى بل طبيعى .



موقفنا الآن من مشكلة المرأة ، هو بعينه موقف غيرنا من الشعوب التى سبقتنا فى المدنية الحديثة فى القرن

التاسع عشر • لقد بدأت هذه المشكلة تأخذ شكلا بين الوضوح في أواسط القرن الفارط ، ولكنها كانت قد أخذت تحتل مكانا ساميا في عقول المفكرين في نهاية القرن الثامن عشر •

غير انه لا ينبغي لنا أن نغفل عن أن مشكلة المرأة عند غيرنا من أمم الشمال ، كانت تتاجا للتحول الاقتصادي الحديث ، ولا شك في اننا مقبلون على عصر أشبه بالعصر الذى مرت به الأمم الأوروبية في أول نهضتنا الصناعية وفي بداية عصرها الاتاجى •

لقد أخذنا نشعر جميعا بأن من حولنا جلبة تسمى مشكلة المرأة ، وبدأنا نتحسس أسباب هذه الجلبة ونبحث في نتائجها واحتمالاتها منذ ثلاث عقود خلون من الزمان • ولكن احساسنا بعظم المشكلة أخذ يزداد ويضخم بعد أن دلفنا في سبيل الأخذ بأسباب المدنية الاتاجية التى سيكون للآلة والعامل فيها الشأن الأعظم • استغفر الله : بل أقول العامل والعاملة والأجير والأجيرة •

لقد اتبع أكثر رجالنا وبخاصة في الريف ، وهم في العادة اولئك الذين غلبت عليهم العواطف البدائية واحتكمت في مشاعرهم وعقولهم العادات القبلية الاولى ، اهواءهم في توريث أولادهم من بعدهم ، فجرى أكثرهم على أن يحتال على الشرائع حيناً ، ويتسلح برخصها حيناً آخر في حرمان البنات من حقهم فيما يرثون عنه • فمنهم من ترك للبنات

قسطا من الثروة ولكن مقترا عليهن فيه ، ومنهم من حرمن
حرمانا كلياً ، معتديا بذلك على الشرع والعرف والآداب
العامة . ذلك الى جانب ما كابد بنات الاسر ، وبخاصة الرفيعة ،
من ضروب الحرمانات الأخرى ، تلك الحرمانات التي كان
أهونها حرمانهن من حقوقهن في الميراث . فان البنت التي
تحرم من الميراث بارادة أبيها ، تخرج الى الحياة وهى تعلم
انها فقيرة معدمة ، أما التي يختار الله أباهها قبل أن يتصرف
فى ماله بالتى هى اسوأ ، فترث عنه حقها الشرعى ، ثم تحرم
من الانتفاع به كل حياتها ، وقد تموت قبل أن تشعر أن لها
ملكا شرعيا ، يكون حرمانها أبلغ فى الايذاء من الحرمان الأول .
لا سيما اذا علمنا ان الذى يحرمها من ذلك أشقاء أو أعمام
أو اخوال يأثفون أن يكون لها ملك يرتع فى بحبوحته أولاد
رجل غريب ، كأنما هؤلاء الأولاد قد أتى بهم الرجل الغريب
من سوق البهائم ، ولم يتكونوا فى رحمها .

كان هذا الوضع مما يحتمل بعض الشئ فى زمان نزلت
فيه قيمة الثروة الزراعية ولم يكن له فى الحياة الاقتصادية
هذه المنزلة التى نشهدها الآن . ولذلك نجد أن القانون
قد حمى أولاد المتوفين قبل آبائهم ، فأقر لهم حقهم فى الميراث
كما لو كانوا قد توفوا بعد المورث . وهذا ولا شك من
الظواهر الجلية على أثر العامل الاقتصادى فى الحياة الاجتماعية
الحديثة . كما أنى لا أظن أن رجلا مثقفا من أهل هذا الجيل

يستطيع أن يقدم على ما فعل أبوه أو جده فيحرم بناته من ميراثه ، الا أن يكون قد فقد كل احساس بالمسئولية •

— ٣ —

أما عهدنا بتعليم البنات فقريب • ولا شك في أننا أخذنا تفكر بجد في تعليمهن قبيل الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ • كانت سيداتنا الى ذلك العهد محجبات غير سافرات ، وكن في حالة تشبه الأسر • اللهم الا القرويات اللواتي كن بحكم حياتهن محتاجات الى العمل في الحقول وارتياح الأسواق • ولا مرية في أن هذا الوضع قد عاق تعليم البنت ووقف حائلا دون تثقيفها • فالسيدات المحجبات من الأسر الكبيرة كن يأنفن أن تخرج البنت الى المدرسة وان رغبن في تعليمها ، والقرويات السافرات كن لا يدركن معنى للتعليم • شاع قبل ذلك ضرب من تعليم البنت كان أسوأ من الجهل نتائج ، وأنكى منه في شحن العقل بشتى التوافه والخرافات • كان أصحاب البيوت الكبيرة ، وهى بيوت ورثت نظامها وتقاليدها فى الغالب من بيوت الأمراء المماليك ، يفضلون أن تعرف البنت القراءة والكتابة ، فيعهدوا بهن الى الشيوخ الذين يتلون القرآن فى البيوت ليعلموهن « العلم » • وكان هؤلاء الشيوخ يختارون فى سن الكهولة أو الشيخوخة ، ولا يعرفون من شئون الدنيا شىء الا فك الخط وصم القرآن • أما معلوماتهم العامه فلا تتعدى لفيفا من الخرافات والأساطير

تلقوها عن شيوخ سبقوهم الى جنات النعيم • فكانت البنت،
وهي في عنفوان انوثتها واستعدادها لتقبل الحياة باسمه
فيئانه ، تنشأ غارقة في ثلج المشيب والخرافات • وان ذلك
لمن أعظم ما ينتهي بالحياة الى العقد النفسية التي يصعب على
الانسان مهما قويت ارادته أن يتخلص من آثارها ، فما بالك
اذا نشأت في نفسية بنت ضعيفة لا تعرف من الحياة الا أبواب
القصر المغلقة والخصيان والجواري السود من متوحشات
أهل الجنوب الأقصى والحبشة والكونغو ، والشيخ المخرف
الذي كان الناس يعتقدون أنه وسيلتهم الى الله ... أو الى
جهنم • فان منهم من كان الى جهنم أقرب شيء •

أما طريقة الانتقال من تلك الحال الى ما نراه اليوم من
تهافت البنت على التعليم وتهافت أهل البنت على تعليمها ،
فقد كانت بخطوات بطيئة ثم تسارعت • فان اخواننا المصريين
من غير المسلمين ، كانوا أول من توجه الى تعليم البنت
في المدارس الأجنبية ، فظهر في المجتمع منهن زهرات أخذ
عبيرها يفوح حتى عم أريجه • ولقد أخذ أهل البيوت الكبرى
من المسلمين يقدمون على تعليم البنت في المدارس الأجنبية
وفي مدرسة أو مدرستين انشئت بعد الاحتلال البريطاني ،
وكانت المدرسة السنية واحدة منهما •

وكان التعليم حتى ذلك الطور زخرفا من زخارف الحياة،
لا سلاحا تتسلح به البنت لتكافح به في الحياة • فان فكرة كفاح

المرأة لم تقم في الأذهان الا منذ عهد قريب جدا ، أى منذ أن دخلت البنت مدرسة الطب ثم الجامعة بكلياتها الشتيتة . يقولون أن المرأة لم تطالب بحقها في الحياة الاقتصادية والسياسية ، ويتخذون ذلك حجة عليها . ولا أدري لماذا تطالب والزمن يسابقها الى الارتقاء ، ويدفع بها دفعا الى حياة العمل والكفاح . وتلك حال البنت منذ نصف قرن ، وهذا حالها اليوم . لقد انتقلت من سجينة في القصر أو البيت الى منصة القضاء والى حجرة الجراحة والى حانوت البيع والى المؤسسة التجارية ، وبالجملة خرجت الى الحياة بعد الموت ، واستشمت نسيم الحرية بعد الاستعباد ، وتفتحت أمامها أبواب الدنيا . ولماذا تستصرخ وهى التى سجلت أعظم انتصار شهدته مصر ، بل شهدته الشرق كله في نصف قرن ؟ ومن كانت هذه حالها أيكثر علينا أن نعترف بأن لها حقا يقال له الحق السياسى ؟

— ٤ —

إذا كانت الغاية من كل نظام سياسى حر ، هو الحصول على مصوتين مستقلين فى الرأى ، فلا شك مطلقا فى أن للمرأة المتعلمة حقا لا ينكر فى أن يكون لها نصيبا من اقامة دعائم ذلك النظام !!!

ولا مشاحة فى أنه من أكبر الظلم أن تفتح للمرأة معاهد التعليم والثقافة ونصلها بالمعرفة العامة ، ونجعلها تتصل بالعالم

من طريق الاذاعة والصحف ، ثم ننكر عليها ذلك الحق الذى
نضفيه على ملايين من الرجال لا يعرفون من الدنيا الا الدائرة
الضيقة التى يعيشون فيها ، وهم على جهل تام بكل ما يؤهل
بهم لأن يكونوا مصوتين مستقلين فى رأى أو ذوى رأى
على الاطلاق . اننا بهذا الوضع الغريب انما نضعف من نظامنا
النيابى وننكر على الديمقراطية انها تعمل للمساواة لا للتفاضل .
اننا بذلك نفهم الديمقراطية فهما عكسيا . وما السبب فى ذلك
الا تقليدا جرينا عليه . تقليد أن المرأة نصف انسان . ولكننا
من حيث حق الانتخاب والتمثيل لم نسمح لها بذلك الشرف
الذى أضفاه عليها ذلك التقليد ، فلم نجعل صوت امرأتين
بصوت رجل واحد ، ولم نجعل نائبتين مقام نائب واحد .

ولعمري كيف يستقيم الأمر وكيف نكون أمناء فى تفكيرنا
اذا نحن لم نعترف بأن الرجل المتعلم مساو للمرأة المتعلمة
من حيث انه مادة غير صالحة للتصويت فى الانتخابات العامة،
واذا نحن لم نعترف بأن الرجل المتعلم مساو للمرأة المتعلمة
فى ذلك . أما اذا كان الجهل مانعا من مباشرة هذا الحق
السياسى ، اذن فلننكره على المرأة والرجل ، اذا تساويا
فى الجهل ، واذا كان التعلم رخصة لمباشرة هذا الحق ، اذن
فلنضفه عليهما معا اذا تساويا فى درجة خاصة من العلم .
ولكننا لا نفعل ذلك . نفكر نحن الرجال بمنطق مصالحنا
ونزواتنا وخيالنا ، فنعطى الجاهل حق الانتخاب وننكره

تنبیه : یقرأ السطر الثانی من صحیفة ۱۴۵ قبل السطر الأول

Handwritten text, likely a signature or name, written in a cursive script. The text is faint and appears to be "Wm. H. Smith".

اعتقادنا ان أكثر الناهخين غير مستقيلين فى الرأى ، ومنع هذا على الجاهلة ، مع تساويهما فى أنهما مادة غير صالحة ، ومع الحق عن المتعلمات مع أنهن مادة صالحة للتصويت وربما كن مادة اذا دخلت فى بناء ديمقراطيتنا فقد تجعل بعض الرجال ينجلون شيئا ما •

قليلًا ما تعرف حمرة الخجل وجوه الكثير من رجالنا ، ولأن الكثيرين منا يأتقون من أن تعلق جباههم حمرة الخجل ، لانود أن ندخل ذلك العنصر الذى سوف يعرفنا ماهى حمرة الخجل فى تكويننا السياسى •

وليست هذه البلاد مستعمرة للرجال تدار بمحض ارادتهم وتوزن أقدارها بمقتضى اهوائهم • وليس نساء هذه البلاد رقيقات مستعبدات ، ولسن اماء اشتريناهن بالمال • بل هن محررات بحكم الطبع وحكم القانون • هن كائنات كاملات الحرية كاملات الانسانية ، كاملات الحقوق • أما أن نقول عكس ذلك ، ثم ندعى اننا شعب ديمقراطى حريعى فى أرض حرة ، فان ذلك يكون أبعد شئ عن منطق الواقع •

ان الذين ينكرون على المرأة حقوقها السياسية ، لا يصدر عن فيما يقولون عن اقتناع أو رأى صحيح ، وانما هم ينزعون هذه النزعة دفاعا عن مصالح خاصة يحاولون الاستئثار بها فهم يمنعون عنصر المرأة عن الدخول فى معترك السياسة ، ويحاربون هذا النظام بأظافرهم وأسنانهم ، لأن هذا العنصر

إذا دخل ميدان السياسة فسوف يكون أداة تقلم من أظافرهم،
وتمنعهم عن القضم بأسنانهم • انهم ينكرون هذا الحق على
المرأة لأنهم سوف يخجلون ، ولقد أصبح الخجل مرضا حادا
في بيئاتنا السياسية ، نطلب منه الفرار • أصبحنا نشعر أننا
بالفرار من الخجل أحق منا بالفرار من سم الأسود والدين
الفادح والحريق المخوف والداء العياء •

الفصل الرابع

النظام التمثيلي والغاية من الحكومة - الحكم الديمقراطي
بغير أن تباشر المرأة حقوقها السياسية يكون نظاما ناقصا -
بين المبدأ والتطبيق - تبدل الحياة من البيت الى المصنع -
الحياة وناحياتها الاقتصادية الحديثة - تصنيع هذه البلاد
وما يترتب عليه من النتائج - الفلاح هو المنتج والفلاحة هي
الممونة - حاجتنا الى الصناعات الزراعية ضرورة قصوى .

- ١ -

للنظام التمثيلي في الحكم ، والغاية من حكومة قائمة على
هذا النظام ، مبدآن أساسيان : الأول العمل على اسعاد
الجمعية بأوسع معنى ، والجمعية لفيف من رجال ونساء .
والثاني : أن هذا النظام مادام قائما على أساس الاعتراف ،
بالحقوق السياسية لجميع أفراد الجمعية ، فان حرمان طوائف
معينة من الأمة من مباشرة هذه الحقوق معناه الصريح انتقاص
النظام التمثيلي في الحكم ، والابتعاد عن الغاية التي تتوخاها
من حكومة قائمة على هذا النظام .

واذن يكون حرمان نصف الأمة أي النساء من مباشرة
الحقوق السياسية ، معناه أن النظام التمثيلي في الحكم غير
مستوف ، وان الغاية من قيام حكومة مرتكزة على هذا
النظام غير محققة بالفعل .

لا أريد أن اناقش الذين يقولون ان فئة أو فئات من الأمة غير جديرة بمباشرة تلك الحقوق . فقد يكون في كلامهم على ظاهره شيء من الحق . وانما أقول اننا نعيش في ظل نظام ديمقراطى أساسه الحكم التمثيلى الحر ، لا أكثر من هذا ولا أقل . واننا مادمننا نعيش في نظام يضمن علينا هذه الحقوق التى هى لب ذلك النظام ، فليس لأحد أن يقول ان تعطيل جزء من ذلك النظام هو خير الجمعية ، الا وتلازمه الحجة بأن ذلك النظام الذى نعيش في كنفه غير ملائم لمزاج الأمة .

هم يريدون أن يقولوا ذلك ولكنهم لا يجدون الشجاعة التى تحملهم على المصارحة به . ولو أنهم قالوا ذلك صراحة اذن لكانوا الى الاصلاح أقرب . لأنهم بذلك يواجهون الحقائق التى يعتقدون بصحتها ولا يتوارون من مجابهة رأى العام بما يعتقدون . أما أن نقول علانية أننا ديمقراطيون ولنا دستور قائم وقانون أساسى هو روح ذلك النظام ثم ننكر على فئة من الأمة حقها الصريح في مباشرة الحقوق التى تترتب عليه ، فان هذا لا يستقيم مع المنطق ، كما أنه لا يستقيم مع الواقع .

آية ذلك أن بعض المفكرين ، وهم من أولئك الذين نافحوا عن النظام الدستورى وكافحوا في سبيله ، يقولون انهم يوافقون على أن تباشر المرأة الحقوق السياسية ، ولكن من ناحية المبدأ ، لا من ناحية العمل . ومعنى هذا أنهم

يريدون أن يقولوا ولكن بطريق غير مباشر ، ان الاعتراف
بمبدأ التمتع بالحقوق السياسية شيء ، وتطبيق ذلك شيء
آخر . وبعبارة أوضح ان فئة أو فئات من الأمة يمكن
الاعتراف بمبدأ أن لها حقا سياسيا ، ولكن الاعتراف بذلك
المبدأ لا ينبغي أن يترتب عليه أية نتيجة عملية . وما ذلك
القول الا بمثابة أن تقول لانسان انك حر من حيث المبدأ ،
ولكن ليس لك أن تتعدى جدران هذه الحجرة . لك أن تتمتع
بالمبدأ ، أما أن تبشر الحقوق المترتبة عليه ، فلا اختيار لك
فيه ، لأنك لاتزال قاصرا عن استعمال ذلك الحق بما تستقيم
معه أمور الدولة . ذلك في حين أن شؤون الدولة انما يخضع
تدبيرها لقانون دستوري ، لم يفرق مطلقا بين ما يقال له
« مبدأ » وبين مباشرة الحقوق المترتبة عليه .

تملى علينا هذه الآراء عقلية مضطربة . وما السبب في
ذلك الاضطراب الا اننا نخشى أن نطبق المبادئ أو أننا
نحاول أن نتنكب طريق تطبيق المبادئ ، انقيادا وراء أوهام ،
أو طلبا لغايات غير مستبانة تماما . ولقد كاد يجزنا هذا
الاضطراب الى ما يشبه عدم الاستقرار . وأى قلق يصيب
النفس والفكر أنكى من حالة تريد فيها ولا تريد . تريد أن
تكون حرا ، وتخشى أن تقتلك الحرية !!!

أما سبيل الرشد فهو أن تؤمن بالحرية ونطبق مبادئها
بجرأة وحماس . سبيل الرشد أن نقدر المبادئ التي يقوم

عليها نظام الحكم الحر ونصونها ونرعها ، ونضيفها جملة
على كل فرد من أفراد الأمة ، وتترك للزمن أن يكييفها . فان
جسم المجتمع فيه المرونة وفيه هذه القابلية . قابلية تعديل
البيئة بما يلائم مصالحه ، وفيه القدرة على أن يضمن الخير
الأعظم للعدد الأعظم من الأفراد . ومهما لاح في الخطوات
التي يسلكها المجتمع الى هذه الغاية من تناف مع السلوك
المستقيم ، فالنتيجة أن يحصل الناس في النهاية على أصلح
صورة من النظام تلائم مؤهلاتهم ومستواهم باعتبارهم
جمعية بشرية .

من حيث ذلك نقول ان حرمان المرأة من مباشرة حقها
السياسي ، بصورة أو بأخرى ، انتقاص لمبدأ التمثيل
الديمقراطي ، واعتداء على حق فريق من الأمة ، هو في الواقع
نصف الأمة جميعا ، وهو حق اعترف به الدستور من حيث
المبدأ بنصوص صريحة لا تقبل الجدل . وانما اعتدى على
ذلك الحق قانون الانتخاب . وهو قانون تنظيمي لا قانون
أساسي . فكأننا بذلك قد قبلنا أو تغافلنا عن أن القانون
التنظيمي قد اعتدى على ما أقر القانون الأساسي . وهذا وضع
لا ينبغي أن تصبر عليه أمة حرة تعيش في ظل نظام ديمقراطي .

— ٢ —

ان الشعور السائد اليوم ، شعور ان المرأة ينبغي أن
تباشر الحق السياسي ، والصيحة التي يرن صداها في آذاننا

منادية بذلك ، انما هى نتيجة لمقدمات كثيرة ، أخصها ما قطعنا من أشواط فى التطور الاقتصادى ، وما نتظر أن يكتنفنا فى المستقبل القريب من مشاكل ذلك التطور . أضف الى ذلك تنبه الوعى القومى واعتناق الفكرة الديمقراطية وذيوع النزعة الحرة فى السياسة والأدب .

من الانقلابات الصامتة التى كان لها من الأثر اضعاف ما لكثير من الانقلابات الصاخبة ، ذاك الذى أصاب الحياة الأوروبية فى أثناء القرن التاسع عشر . فان اختراع الآلة البخارية والنول الآلى ، وما يترتب على ذلك من القضاء على كثير من الصناعات المنزلية ، وانتقال العمل من البيت الى المصنع ، وتأثر الحياة القروية والأسرية بالخروج من حدود القرية والبيت الى رحاب المدن ومؤسسات الانتاج الكبرى ، كان من الانقلابات التى تمت بغير ثورات جامحة أو تدميرات حاطمة . ولكن كان فيه بالرغم من ذلك من الآثار الانقلاية ما تقف دونه الثورات الكبرى فى تاريخ الانسانية . تقصر عن آثاره الحروب الدينية والثورة الفرنسية واستقلال أمريكا فى حرب التحرير .

ولم يقتصر أثر ذلك الانقلاب على الناحية الاقتصادية من الحياة ، بل تعدى تلك الدائرة الى الاخلاق والى الفكر والى العلاقات الأسرية والزوجية فأقامها على أسس جديدة

أدنى الى الاستقلال والكفاح • فقد أصبح على المرأة أن تعمل لتعوض على بيتها واسرتها ما فقدت بموت الصناعات المنزلية التي كانت تؤدي قسطا كبيرا من نفقات الاسرة وتربية الأولاد • وكذلك تأثرت الزراعة وقل انتاجها ، لأن اليد التي كانت تعمل فيها انتقلت أكثر قوتها الى المعامل والمصانع ، واستغرق ذلك كل وقت الفراغ الذي كان ينفقه أعضاء الاسرة في الانتاج الصناعى المنزلى • ولقد نزل بالزراعة من جراء ذلك ضرر بالغ ، قبل أن تحل الآلة في المزرعة لتعوض ما فقدت المزرعة من جهد العضلات البشرية • وكان من الضروري أن تنشأ حالات متهاوشة متشابكة تقتضى وضع تشريعات تنظم عمل العامل والعاملة في المصنع ، وتحدد علاقاتهما مع صاحب العمل ، وأخذ البحر الراكد يضطرب وتلتطم أمواجه حتى طغى مده في أوائل القرن العشرين •

ولا شك في اننا مقبلون على حال تشبه هذه الحال • على اننا اذا كنا لا نشعر بآثار الانقلاب الذى نحن مقبلون عليه فذلك لأننا لم نرتم بعد في غمراته • فما زلنا على أبواب الحياة الانتاجية ، التي ثبت وجودها الفعلى بانتشار المعامل والمصانع في المدن وفي الريف • ولا شك في أن العمل على تصنيع هذه البلاد والجري وراء تحقيق هذه الغاية من غير أن نستعد لملاقاة المشكلات التي تترتب عليه سيعرض حياتنا الاجتماعية الى اخطار شديدة عاتية ، نستطيع أن نكسر من حدتها ونستقوى على آثارها الخبيثة ونجنى ثمراتها

الطبية بتنظيم خطى ذلك الانقلاب الصناعى الذى نحن مقبلون عليه وبسن الشرائع التى تجعله ملائماً لحالاتنا الاجتماعية والاقتصادية . ولا يتأتى لنا ذلك الا بأن ننظر فى الأشياء نظرة واسعة شاملة فنحتاط لكل احتمال وندرس كل حالة درساً مستقيماً مع ما يقتضى الصالح العام لا الصالح الخاص . واذن وجب أن يسمع صوت الأمة جميعاً فى سن هذه القوانين . ينبغى أن يسمع أول ما يسمع صوت العامل والعاملة وصوت الزارع والزارعة ، لأن بين العامل والعاملة تنافر وبين الزارع والزارعة احتكاك فى تحديد الأجور ونوع العمل ، وبخاصة فى رغبة الرجل فى أن تظل المرأة فى حاجة اليه ، وسعيه لأن يفقدها استقلالها الاقتصادى لتظل دائماً تلك العجينة اللينة التى تستغل بأهون ما يتطلب استغلالها من جهد .

ستنشأ فى بلادنا المصانع الضخمة الفخمة ، وتنتشر فى طول البلاد وعرضها ، وسوف يكون لانتشارها مشكلة تقوم بين الصناع والزراع . فان اليد التى تدخل المصنع أو المعمل ، لاشك فى أنها سوف تؤخذ من الحقل ومن المزرعة . وسوف لا يقتصر ذلك على الرجال دون النساء ، فان المرأة سوف تزاحم الرجل بالمنكب والذراع ، وسوف يقوم بينهما تنافس ومضاربة على تحديد الأجور وقيمة العمل . ولا مزية فى أن من صالح صاحب العمل أن يحاول استغلال أكبر جهد بأقل

أجر ، نشدانا لما يدر عليه هذا الوضع من الربح الأكبر
بالاتفاق الأصغر • ولقد كان لقيام مثل هذه الحالات نتائج
بالغة منتهى السوء في البلاد التي شهدت قبلنا مثل هذا
الانقلاب ، ولو لم يتداركها المصلحون ورجال الدولة بالتنظيم
وسن القوانين التي تحدد علاقات العامل والعاملة وصاحب
العمل ، لما بقى في أوروبا الآن من حضارتها التي تتيه بها على
العالم قائم ولا صعيد •

كان لذلك الانقلاب آثار على الحياة وعلى الفكر • ولكن
لا شك في أن أثره كان في المرأة اضغاف أثره في الرجل •
كان أثره في عاداتها ومصالحها ولبانات حياتها بالغاً كبيراً •
لقد أثر في طريقة حياتها وفي أخلاقها وفي نظرتها الى الحياة •
لقد ارتجت من آثاره حياة الأسرة وتزلزلت قواعدها القديمة ،
فلاح في عصر من العصور أن الأسرة قد انفكت عراها
وحان حينها •

ولا ننسى الى جانب هذا ان طبقة الزراع والاجراء هم
صلب المجتمع وفقاره • فاذا لم تجد هذه الطبقة ما يكفى
حاجتها من العمل والرزق ، كان ذلك أعطب ما يصيب آلة
الحياة الاجتماعية من اختلال • ولا شك في أن المصنع وصاحب
العمل من أشد العوامل أثراً في زعزعة حياة العامل والأجير ،
اذا لم تنظم العلاقات بتشريعات ترعى أول ما ترعى الاحتفاظ
بحالة من التوازن الاجتماعى •

ولقد ظلت مصر طوال الأعصر معتمدة على الزراعة وحدها فكانت مهددة دائما بأن تذل اذا أصاب الزراعة آفة أو تشريق، وتنتعش وتقوى وتشمخ اذا نضرت الزراعة وأتت ثمراتها الكبرى . معنى ذلك اننا لم نعتد في حياتنا على صناعة أو صناعات تعوض علينا عند الحاجة وفي سنى القلة الزراعية ، ما يجعل حياتنا محتفظة بشيء من التوازن الاجتماعى . فمن قلة الى كثرة ، ومن كثرة الى قلة . ومن فقر مدقع الى غنى فاحش ، ومن غنى فاحش الى خصاصة قاتلة . فاذا أقبلنا اليوم على انقلاب صناعى نقيمه الى جانب الزراعة ، فانما نقبل على عمل تدفعنا اليه حاجات الحياة والعيش . ولكن لا بد من تنظيم ذلك الانقلاب بحيث لا يطفئ على المصدر الأول للثروة القومية .

أما اذا ظننا بأن ذلك الانقلاب سيقوم على سواعد الرجال وحدهم فقد ضللنا الطريق . ستدخل المرأة فى هذا الانقلاب من نفس الباب الذى سيدخل منه الرجل ، ان طوعا أو كرها . وستقوم بذلك المشكلات الاجتماعية وتسئ القوانين التى تنظم العلاقات بين الأفراد وبين شطرى الأمة ، فهل يحدث ذلك بمحض ارادة الرجل ولا يسمع فيه للمرأة صوت أو يصغى لشكاة ؟

— ٣ —

من الأخطاء الشنيعة التى تدل بوادر الأحوال على أننا مقدمون عليها اننا نعمل الآن على تصنيع هذه البلاد من غير

أن ننظم ذلك العمل تنظيما يحفظ على الزراعة وهى المصدر الأول للثروة القومية ، مركزها الطبيعى فى حياتنا • نعمل على اقامة المصانع التى تستغل بعض الانتاج الزراعى كالقطن مثلا ، ولا نشجع الصناعات الزراعية الصرفة التى يمكن للزارع أن يستغل ثمراتها فى جوانب مزرعته • نشجع صناعات الغزل والنسيج والحديد والصناعات الثقيلة ، ولا تفكر فى ترويج الصناعات الزراعية الصغيرة لتجفيف اللحوم وحفظ الخضر وتربية الدواجن أو انتاج عسل النحل، ومصر باعتراف الجميع يمكن أن تصبح محطة عالمية لهذه الصناعة • أما اذا أردنا أن ننظم تصنيع هذه البلاد فيجب أن نعنى الى جانب الصناعات الثقيلة ، بالصناعات الزراعية التى يمكن للزارع أن يمارسها فى حدود مزرعته ، حتى يستطيع أن يعتمد الى جانب الزراعة على صناعة أو صناعات تعوض عليه شيئا من خسائره فى أعوام القلة أو الكساد • والدليل على ذلك اننا أنشأنا بنك التسليف الزراعى والتعاونى ووضعنا نظام السلف الصناعية ، ولكننا لم نفكر فى انشاء بنك للتسليف على الصناعات الزراعية ، ولم نخط فى هذه السبيل خطوة كبيرة أو صغيرة • فكأننا بذلك نضحى بناحية الزراعة لناحية الصناعة •

أما ما سوف يترتب على هذه السياسة من الأثر الاجتماعى فهو أن المرأة ستخرج من ميدان المزرعة الى ميدان المصنع •

والمرأة فى المزرعة هى الفقار المقوم لحياة الزراعة • أقول ذلك
عن خبرة وشهادة صحيحة • فإذا كان الفلاح مصدر الانتاج
الزراعى ، فان الفلاحة هى مصدر الانتاج الصناعى • هى
التي تربى الدواجن وهى التي تقوم بصناعة الألبان والدهون
على قدر ما تؤهل بها معلوماتها الضئيلة فى هذا الشأن •
فالفلاح هو المنتج ، والفلاحة هى الممونة •

إذا خرجت هذه اليد من ميدان العمل الفلاحى واستغلها
المصنع الكبير وأغراها بالأجر الطيب الذى يصلها بانتظام
يجعلها تشعر بشيء من الطمأنينة فى الحياة ، وختل المزارع
من تلك الأيدي الماهرة ، فاننا ولا شك نعرف النتيجة •

— ٤ —

ان الصناعات الزراعية ، وهى صناعات صغيرة ، مما ينبغى
أن نوجه اليه أكبر همنا فى نهضة صناعية نحاول أن نهضها •
فان هذه الصناعات اذا توافرت لها الآلات الحديثة ، لا تحتاج
الى جهد عضلى تعجز المرأة عنه • وهى فضلا عن ذلك
اذا تناثرت فى المزارع حفظت على الزراعة منزلتها ورفعت
من شأنها وقوت من انتاجها وضاعفت من أرباحها • وهى
الى جانب هذا كله تقلل من طغيان المصانع الكبرى على اليد
العاملة فى الزراعة •

ان من العبث أن نقول ان المصانع الكبيرة سوف لا تطفئ
على المرأة فتخرجها من الحقل الى المدينة • فان تجارب الذين

سبقونا الى ذلك قد دلت على أن ذلك غير صحيح • بل لقد عانت بعض البلاد الاوروبية الأمرين ، اذ نشأت من جراء ذلك مشاكل لا تزال تعاني تلك البلاد نتائجها حتى الآن •

والسياسة الرشيدة التي توحى إلينا بها الظروف التي نحن مقبلون عليها ، تحتم علينا أن لا نضحى بالزراعة في سبيل الصناعات الثقيلة ، ولا أن نضحى بالصناعات احتفاظا بحياتنا الزراعية التي ألفتها القرون الطوال • واذن ينبغي أن نكافئ بين الناحيتين • يجب أن نقيم الزراعة على نظام آلي ، وأن ننشئ الصناعات الزراعية ونرعها ونشجعها ونرصد لها الأموال التي تحتاج إليها حتى تستقر وتصبح مصدرا من مصادر الثروة لهذه البلاد •

أما اذا لم تفعل فإن النتائج ستكون وخيمة ولا شك • ستخرج اليد التي نحتاج إليها في الحقول الى مصانع الحديد والنسيج والغزل وغيرها ، وتنحط الزراعة وتقل منها اليد العاملة ، وستخرج المرأة من بيتها الريفي الى المدينة لتعمل في المصنع بدلا من العمل في الحقل •

في جميع ما يترتب على هذا الانقلاب من النتائج والأحوال ينبغي أن يسمع صوت المرأة كما يسمع صوت الرجل • فانها من حيث انها عنصر انتاجي ، لا تقل عن الرجل شأنًا ولا تنزل مكانة ، وان لها في الانتاج لميادين لا يستطيع الرجل أن يقتحمها بحال من الأحوال •

الفصل الخامس

علاقة الرجل بالمرأة - أطوارها - القردة العليا والانسان -
العقائد والأساطير وعلاقتها بقضية المرأة - كيف ارتدت المرأة
بسياسة الرجل عاجزة خاملة - تعاضم الفروق بين كفايات
الرجل وكفايات المرأة نتيجة لتسلط الرجل - الرجل يصد
التطور الطبيعي عن أن يؤثر في المرأة - المرأة والرجل في اقامة
المدنية الانسانية - القيود والحرمانات التي فرضها الرجل على
المرأة هي السبب في ردها عن النشوء الطبيعي .

- ١ -

ان العلاقات التي قامت بين النصفين ^(١) ، الرجل والمرأة ،
منذ أقدم العصور التي نشأت فيها الجماعات الانسانية ،
قد تقلبت في أطوار عديدة مختلفة المظاهر متباينة المرائي .
ولا شك في أن هذه العلاقات في أول النشأة الانسانية كانت
أشبه بالعلاقات التي يذكرها المواليدون (علماء التاريخ
الطبيعي) قائمة بين القردة العليا ، وهي التي يسمونها علمياً
« البشريات » : Anthropoidea . كانت علاقة مزوجة
لا علاقة اباحية ، على ما يرى من حال أربعة الأجناس العليا

(١) النصف النصف وهي الكلمة العربية التي اخترتها لتقابل كلمة Sex والتي
جرى المترجمون على أن تقابل كلمة جنس . وكلمة « الجنس » علمياً : Genus
تنقل معنى محالفاً تماماً مما يقصد بكلمة Sex . وقد استعمل القرآن كلمة « الزوج »
لإفادة الوصفية لا لإفادة الإسمية فقال : نخلق منه الزوجين الذكر والأنثى . وكلمة
نصيف حسنه تقابل كلمة Sex فيقال نصيف ذكر ونصيف أنثى .

من القردة وهى الغرلى والشمزى والارطان والشو جر •
وكانت فوق ذلك علاقة طبيعية صرفة ، أى علاقة تعايش فطرية
لم يدخلها شىء من تأثير الأديان والعقائد أو المؤثرات النفسية
التي نشأت من بعد ذلك الطور فى نفسية الانسان • فان
القردة ، وهم أبناء عمومتنا الأقربين ، على ما ثبت بالأدلة
العلمية القاطعة ، كانوا ، ولا يزالون فى غاباتهم الاستوائية ،
المثل المضروب لما كانت عليه أقرب حالة للانسان فى بدائته
الأولى • وهى حالة لم تتصرف فيها المؤثرات الطبيعية عن أن
تؤثر أثرها المحتوم فى أفراد الجنس البشرى • فقام كل قانون
من قوانين النشوء الطبيعى بدوره الكامل فى تنشئة الصفات
التي كان من الضروري أن يتسلح بها كل من الذكر والانثى
فى سبيل الفوز فى معركة الحياة فرديا واجتماعيا • لم يقف
من شىء مصطنع فى سبيل التناحر على الحياة والانتخاب
الطبيعى وبقاء الأصلح يصدها عن السبيل الذى رسمته الطبيعة
لرفع مستوى الأحياء •

ولما ضرب الانسان فى سبيل التقدم والنشوء العضوى ،
وزادت تلافيف دماغه تعقدا ، وأفضى ذلك الى اكتمال انتصاب
قامته وقدرته على استعمال يديه ، نشأت مع هذه الدرجات
التطورية صفات نفسية وأخرى خلقية ، صدت تلك السنن
الطبيعية عن أن تقوم بدورها الكامل فى تنشئة الصفات
الجديدة أو على الأقل فى الاحتفاظ بكل الصفات التي رأت

الطبيعة انها ضرورية للحى البشرى حتى يستطيع البقاء فى أحضانها • وكان ذلك أول ما نشأ فى الانسان من الصفات التى دفعت به نحو تلك الصورة الجديدة التى ندعوها « المدنية » أو « الحضارة » • وما هذه الحضارة فى حقيقتها الا انحراف عن جادة الطبيعة ادت اليه سلسلة من التطورات البطيئة جرت الانسان جرا الى الغايات التى نعيش فى كنفها الآن •

منذ أزمان موعلة فى القدم قام عند الانسان بضعة عقائد صورتها الاساطير والخرافات ، ومن هذه العقائد فئة كان أثرها المباشر على حياة المرأة أعظم ما يكون • ولو أردنا أن نعدد شيئاً من ذلك لما وسعنا فراغ هذا الكتاب ، ولكن يكفى أن نقول انه كان من أثر هذه الخرافات والعقائد التى كان مصدرها الدين ، ان بحث بعض الرجال فى « هل للمرأة نفس » ؟ وهل لها حق الحياة اذا أراد أبوها أو زوجها أن تموت • فوئد البنات، ودفن الزوجات أحياء مع جث رجالهن، وحرمتهن أكثر الشرائع القديمة حق الملك والارث والحرية ، وسلطت عليهن ارادة الرجال يأسروهن فى البيوت ويضربوهن ويقتلوهن ويتلهون بهن كأنهن الحطام ، ويفعلون بهن كل الافاعيل التى من شأنها أن تردهن غيبات مسترخيات ضعيفات لا حول لهن ولا قوة ، ويسلكون بهن كل طريق من شأنه أن يميمت فيهن الارادة ويضعف فيهن قوة الادراك ، ولم يكن

يطلب من المرأة ، شأن ممتهنى الرجعية في زماننا هذا ، أكثر من أن تكون الدمية التى لا حياة ولا عقل ولا رأى لها ولا فهم فيها . وليس من شئ في هذه الحياة أعمل على صد التطور عن سلوك سبيله الطبيعى ، من أن تقف في سبيل حى فتسلب منه كل مقومات الحياة الطبيعية ، فتمنع عليه أن يكتمل جسمانيا ونفسيا وعقليا ، وتعجزه عن أن يتهيا للسير فى موكب الطبيعة ، امنا العظمى .

بهذا ، وبتسلط الرجل على المرأة هذا التسلط العجيب ، تخلفت المرأة عن التطور والنشوء الطبيعى فى عصر الحضارة ، فوهن جسمها وعقلها وذكاؤها ، ومرضت نفسها وتعطل وجدانها واستنامت همتها لضغط الاستبداد والظلم ، حتى أصبحت المخلوق العاجز الجبان . كل هذا والرجل يستكمل على مدى تلك العصور المتطاولة أهفته لحياة الفكر والعمل ، فعظم الفرق بينه وبين المرأة جسمانيا وعقليا ونفسيا ، بحيث أصبح الصدع بينهما مما لا تألفه الطبيعة ولا مثيل له فى غير الانسان من عالم الحيوان .

كان من نتيجة ذلك ، وقد استل من المرأة كل سلاح ، أن تدفعها طبيعة الحياة الى أن تتسلح ذودا عن حياتها ، بصفات الخداع والمكر والحيلة ، بل أن الطبيعة دفعتها الى أن تتسلح بالدموع ، وهى العنوان الأكبر على انهيار النفس وخور الروح . وبعد . فهل رأيت منتصرا يبكى أو حرا

يتذلل أو يحتال أو ينافق ، أو يخادع فيسلك طريق الظلام ،
وأمامه طريق النور ؟

— ٢ —

ذا كان تاريخ الرجل مع المرأة : تعطيل للمواهب والكفايات
أن تكتمل فيها ، وصد لسنن الطبيعة عن أن تأخذ بيدها
وترفعها الى المستوى الحقيق بأن يكون لها بين الأحياء .
ولا يغرتنا ما نرى في رجل اليوم من مظاهر التلطف والأدب
مع المرأة . فان أكثر الرجال انما يتخذون ذلك وسيلة
لاستغلالهن الاستغلال الكامل ، مستعصين عن الوأد والدفن
والضرب والأسر بهذه المظاهر ، لأن شرائع هذا الجيل قد كفت
الرجل عن حقوقه ، وان شئت فقل عن مظالمه القديمة . وانما
نحتاج الى كثير من الفهم والمرانة العقلية والنفسية لتخلص
نحن الرجال مما ورثناه من ذلك . كما أن المرأة تحتاج الى
أن تدفع عن حقها في الحياة بالظفر وبالنااب .

وهل من بغى أشد من أن يقف الرجل بنزواته الدنية
في سبيل أن تتطور المرأة وتتنشأ مواهبها الطبيعية ، ثم يقول
لها ، وما هي الا خلق شهواته ، انك «مخلوق أدنى» ؟؟

شدت بعض العصور فلم تستقو فيها هذه العوامل
المفتعلة ، فنشطت مواهب المرأة وازدهرت بفضلها الحضارة
واستقام المجتمع . ولكن مع الأسف ان هذه العصور في تاريخ
الانسانية ، أشبه شيء بكلمات الصدق التي تقلت من شفاه

الكاذبين • هي ومضات البرق الخلب • ولكن الأمل فسيح
في أن تصعد المرأة في عصر الحرية سلم الارتقاء ، وأن تضرب
في فضاء هذه الدنيا الواسعة التي احتكرها الرجال دونهن
القرون والأحقاب •

— ٣ —

يقول الرجال ان المدنية من خلق الرجل • من خلق عضلاته
وعقله ونفسه • وان المرأة كانت عالة عليه في ذلك • وقد نسلم
جدلا بكل هذا ، وان كنا نسلم أيضا بأن الرجل كان طفلا ،
وان الطفل كان جنينا وان الجنين كان مضغة ، وان له أما هي
التي نشأته وأخرجته خلقا سويا ليقيم صرح المدنية • أم نذكر
بعض الرجعيين بما يخزيهم اذ يقولون ان المرأة ليست بشيء
أكثر من انها « حاضنة حية » فيها تتخلق الانسانية ؟
وما يقصدون بذلك الا أن جنينها لا يكسب من دمها ومن
صفات شئ ، زورا ومبالغة في الكبر والبغى ، وافتياتا على
الطبيعة وعلى الفطرة •

تتجاوز عن هذا كله • تتجاوز عن المركز السامى الذى
خصصته الطبيعة للمرأة ، بحيث جعلتها القوام على الطفل ،
سيد المخلوقات • تتجاوز عن هذا لنسأل : ومن ذا الذى كف
عضلات المرأة وعقلها ونفسها عن أن تشارك الرجل في اقامة
صرح الحضارة ؟ من ذا الذى أسرها وكبت احساسها
وأضعف عقلها وأوهى عضلاتها ؟ من ذا الذى وأدها ودفنها

حية ليشعرها بأنها المخلوق الذى لا شأن له ولا وزن
 فى الحياة ؟ من ذا الذى احتفظ بها جاهلة ضعيفة العقل مكبوتة
 العاطفة منبوذة الرأى ؟ من ذا الذى اتخذها ألهية ولعبة من
 ألاعبيه ؟ من ذا الذى استغل فيها عاطفة الحب ، أسمى العواطف
 الانسانية ، واستذلها بها ثم تنكر لها ؟ من ذا الذى أشعرها
 بأنها المخلوق العاجز المستكين ؟ من ذا الذى أحى فيها
 الشهوات وأمات فيها العقل ، ومن ذا الذى دفعها الى الخديعة
 والمكر والحيلة ، ومن ذا الذى جعلها تتسلح بالدموع ؟ أظن
 أن أسيادنا الرجعيين عندهم به علم اليقين .

— ٤ —

ان القيود والحرمانات ، بل وضروب الشقاوات التى
 فرضها الرجل على المرأة ، انما كان السبب الأول فيها نزعة
 الرجل الى حب التسلط والكبرياء ، ثم الجهالات التى تنفرع
 عند هذه الصفات النفسية . أضف الى ذلك الأوهام التى
 بثها الدين فى كثير من الشعوب البدائية وتوارثها الناس جيلا
 بعد جيل ، فأصبحت بالوراثة واللقاح خلفا عن سلف ، أشبه
 شئ بالمقدسات التى يعتبر الخروج عليها انتهاكا لحرمانها .
 أعتقد مع هذا أن بين الرجل والمرأة فروقا فطرية لا سبيل
 الى نكرانها . فروقا جسمانية وتكوينية اختص بها كل منهما .
 ولكن هذه الفروق قد استغلت من ناحية الرجل استغلالا
 زادت بها قوته وكفاياته ، واتضعت بها قوة المرأة وكفاياتها .

وان من المشاهد الجلية فى هذا الأمر انك مهما أدت عينيك
فى عالم الحيوان لم تجد أن الفروق بين الانثى والذكر قد بلغت
من المقدار ما بلغت بين الرجل والمرأة فى الحضارات القديمة
والحديثه . بل انه على العكس من ذلك أترن فى عالم الحيوان
كفتا التبادل بين الذكر واثاء من حيث النفع والعمل والترابط ،
فقامت العلاقة بينهما على مقتضى الفطرة ، بتوزيع العمل
والتخصص . وعلى العكس من ذلك تماما فى عالم الانسان ،
استبد الرجل بكل شىء ولم يترك للمرأة شيئا ، بل انه قد
اعتدى على ما خصصت الطبيعة للمرأة من ميادين العمل
والانتاج ، ولم يترك لها الا الأشياء التى صدته الطبيعة عند
القيام بها ، كالحمل والوضع والرضاعة . وجملة القول أن
الرجل قد خلف المرأة اداة للقيام بما لم يستطع هو القيام به ،
واتزع منها فوق ما اتزع من حقوق الحياة والحرية والسعى ،
أكثر ما كان ينبغى لها أن تدبر من شئون الاسرة والبيت ،
ليقيم بذلك سلطانه عليها ، وتنتهى هى بذلك الى الخضوع
والذلة والاستكانة .

ومحصل ذلك كله أن معاملة الرجل للمرأة كان سببا
فى أن ترتد كائنا ضعيفا مترهلا ، بل انه فى أكثر الحالات
وعند الاغلب الأعظم من طبقات المجتمع ، لا تعتبر المرأة
الا كائنا من شأنه أن يلبي نداء الجنس . فنحن الرجال قد رمينا
النساء بادوائنا وأنسللنا ، لنقول لهن فى النهاية اتن
خلقا أدنى .

الفصل السادس

زعماء الدين - زعماء الدين ونشوء العلوم الحديثة - تناقض
فى أقوالهم - ألفاظ مختارة لتضخيم المعانى البسيطة - رسالات
الأديان حركات تطورية - فى رسالات الأديان اعتراف ضمنى
بالتطور - تحوير الراى فيما أقر الاسلام للمرأة من الحقوق -
محاولات لاستبقاء سلطة الرجل على المرأة وإطلاق هذه السلطة
من القيود - ميدان الرجل وميدان المرأة سبيل الى الاستعباد -
طبيعة الحياة الجديدة - حشد القوى الجماعية - الاقتصاد
ملاك الحياة الحديثة - الاستقلال السياسى تبع للاستقلال
الاقتصادى .

- ١ -

عمد زعماء الدين فى كل زمان الى ما يسلحهم به الدين
من سلطة ، لتكون هذه السلطة برهانهم الأوحد ودليلهم
القاطع فى مجال الراى . وعمدوا الى جانب ذلك الى تصوير
الدين بأنه ذلك الشئ الجامد الصلب الذى لا يساير الزمن
ولا يخضع لمقتضى ما تخضع له الأحياء من التطور والنشوء ،
عضويا وفكريا وعاطفيا ، ظانين أن الزمن انما يدور ولا تدور
معه الأحياء ، ولا تختلف الأوضاع ولا تتغير المشاعر ولا تتبدل
الاتجاهات ، وأن ذاك الذى كان عليه الناس فى زمان ماض ،
لا تؤثر فيه العوامل الاجتماعية والاقتصادية . بل انهم بذلك
يشعرون الناس بأن من طبيعة الدين التخلف اذا ما جد السير
بالجماعات الانسانية نحو أهداف جديدة أو نظمات تحتمها

عوامل من التطور دقيقة كل الدقة غامضة أسبابها كل الغموض،
في حين أن آثارها كالسيال الموجب في الكهرباء لا بد من أن
يخلف أثره المحتوم في تكوين مزاج الجماعات •

عمد زعماء الدين الى أشياء اتخذوا منها وسيلة لاقرار
سلطانهم لا سلطان الدين ، كقولهم بالتكفير والمروق والردة ،
اذا ما بدا في الافق من أثر التطور الفكرى ما يمس ذلك
السلطان الذى يحاولون من ناحيته الاحتفاظ بمالهم من سلطان •

حدث ذلك عند نشوء العلوم الحديثة في جميع أنحاء
العالم ، وفي أوروبا خاصة • حدث أن رمى رجال الدين العلماء
بالكفر والالحاد والزندقة عندما أخذت علوم اثباتية يقينية
في التنشؤ كعلم الفلك الحديث وعلم تطور الاحياء وعلم
الجيولوجيا والطب النفسانى والاقتصاد والأرصاد الجوية ،
بل كانت لهم مواقف كهذه ازاء كل رأى أو حركة اجتماعية
أو فكرية فيها شئ من روح المنافرة لما اعتقدوا أنه من أصول
الدين أو من قواعده الأولية ، ناسين الى جانب ذلك ان الدين
انما يهذى الى الحق ، وان الحق اذا ظهر وبان واتضح ، انبغى
أن يعتبر أصلا من اصول الدين ، وان الحق انما هو ذلك
الشئ الذى يصطلح عليه أكبر مجموع في جمعية بشرية •
لأن الدين الذى هو الحق ، لا يرغب عن نصره الحق اذا بان
الا وكان في ذلك منافاة صريحة لرسالته ، فيقر الدين الحق
أيما كان في أية صورة ظهر وفي أى مرفق من مرافق الحياة

كان ، وانما يحاول أن ينكر ذلك رجال نصبوا أنفسهم قوامين على الدين وعلى الحق وعلى الناس ، لا لشيء الا لأن التقاليد التى درج عليها الناس منذ القدم ، هى أن يكون للدين ممثلون ، والدين عند الواقع فى غير احتياج الى من يمثله مادام انه يمثل الحق والحق يمثله •

يلجأ أولئك الى جانب هذا الى أقوال قلما يؤمنون بها • يقولون ان الدين انما يحكم فى أمور الناس والحياة صوت العقل والتفكير لا دواعى الهوى والغرض • وهم اذ يقولون ذلك لا يلبثون غير قليل حتى يقولوا ان اللجوء الى التأويل شطط وتبديل ، كأنما هم فى نفس الوقت الذى يقولون فيه بأن « صوت العقل » ، ينبغى أن يكون الحكم فى أمور هذه الحياة ، لا يصفون العقل الا بأنه الخضوع لما جرت عليه أحوال الناس فى عصور تفصلهم عن العصر الذى يعيشون فيه المئات بل الألوف من السنين • بل هم يريدون أن يقولوا ان العقل ينبغى أن يقيد بالنقل تقييدا وأن يخضع لما فسرت به النصوص فى زمان لو اننا ارتددنا اليه الآن ، ورجعنا الى ما كان فيه من أصول مدنية وحالات اجتماعية وأفكار ونزعات ونظامات ، لفقدنا فى وسط هذا العالم الذى تمثله مدنية القرن العشرين ، كل حق لنا فى أن نوجد أو يكون لنا كيان اجتماعى أو سياسى • بل لو اننا ارتددنا جمعية بدوية تدين من حيث النظام السياسى بما دان به أوائلنا اذن لكنا فى وسط

هذه المدنية الحديثة أشبه شئ بالنقطة المظلمة من الضوء
اللامع .

جريا على القاعدة التى اتبعها رجال الدين فى كل الأزمان
سميت مطالبة النساء بحق الانتخاب والتمثيل « فتنة » .
اراد القائلون بأنها « فتنة » أن يضخموا المعنى فاختاروا له
اللفظ الذى ينقل الى الذهن معنى الخروج والردة والعمل
على تقويض اصول المجتمع اختاروا كلمة « الفتنة » بالذات
ولم يقولوا « البدعة » أو غيرها من الكلمات التى تخفف
المعنى المنقول الى الذهن ، كما قالوا قديما بالكفر والزندقة ،
يرمون بهما كل من أراد أن يصلح من الفكر أو النظام شيئا
درجت عليه القرون . ذلك فى حين انهم لو فكروا قليلا
لوجدوا أن جميع الرسائل الدينية كانت فى عصر نشوئها
ثورة على الأوضاع القديمة . فكان الأديان بحكم انها
رسالات اصلاح هى فى حقيقتها خروج على ما درج عليه
الناس من أفكار ونظامات وشرائع ، واذن تكون رسالات
الأديان هى أقوى الرسائل التى عملت على رقى الانسان ،
وانها بمقتضى ذلك أعظم ما أصاب الفكر البشرى والمدنية
من الانقلابات المدوية فى خلال القرون ، وتكون هى أقوى
الأشياء أثرا فى تكوين الآراء والأفكار الجديدة ، وتكون
أول ما يعترف بحقيقة التطور فى الحياة . ولو لم يكن فى نشر
الرسالات الدينية اعتراف ضمنى بحقيقة ان الحياة تتطور

وتتنشأ ، وانه بمقتضى هذا التطور تحتاج الى نظمات
وشرائع ومعاهد جديدة تلائم درجات التطور التى بلغ
اليها ، لظللنا الى الآن نضرب فى ظلمات القرون الأولى ،
فى ظلمات الوثنية والتكثير ولما قام لعبادة الواحد الأحد قائمة
فى هذه الدنيا •

اذن وجب علينا ، ووجب على رجال الدين قبلنا ، أن
يعترفوا بحقيقة تطور الأشياء ، وأن يسلموا الى جانب هذا
بأن الرسالات الدينية ، لم تكن فى حقيقة الأمر الا استجابة
طبيعية لما وصل اليه الناس من درجات ذلك التطور ، وان
كل رسالة من تلك الرسالات كانت من طابع ذى لونين :
انها تفرض من النظمات ما يلبس الدرجة التى بلغها تطور
الناس ، وانها تضع الى جانب هذا من الأصول العامة ما يجعل
تحويل تلك النظمات مستطاعا لتلبس حالة أخرى سوف
يصل بهم اليها التطور •

هذه حقائق لا يمارى فيها الا مرء ظاهرا • ولكن الواقع
أن رجال الدين حتى لو سلموا بهذه الحقائق ، فانه يكبر
عليهم أن يجاهروا بها ، لأن فى المجاهرة بها انتقاص لذلك
السلطان الذى يتوسمون انهم به يستطيعون الاحتفاظ
بتلك السلطة التى انتزعوها من الدين وماهى من الدين
فى شىء •

في صميم الرسائل الدينية اذن اعتراف ضمنى بحقيقة التطور . والا لكان في انكار ذلك نكران صريح لما للدين من القوة الارتقائية ، أى القوة التطورية . لأن التطور ارتقاء ونشوء وانتقال من حال الى حال اضرب منها في معارج التقدم .

لو لم تكن هذه هى روح كل رسالة دينية ، لظلت المرأة قبل الاسلام كما كانت . « تعد من سقط المتاع ، لا حرمة لها ولا كرامة ، ولا رأى ولا حرية ، تعامل كالعبيد ، وتسجن كالمجرمين ، وتورث كالأثاث والعقار ، وتعذب للهوى الجامح أو الشهوة الرعناء ، وتحرم من التعلم والتملك والارث» ولما حملت من التبعات ما حمل الرجل . ذلك بأن الاسلام أباح لها التعليم والاتجار والتملك والأرث وابداء الرأى فيما يخصها ويعنيها من أمور الحياة ، وندب الى أن يسمع رأى المرأة فى اختيار زوجها وشريك حياتها .

ولكن ذلك الذى أقر الاسلام للمرأة ، قد تحور الرأى فيه تحويرا استند فيه الى نصّين : الأول قوله تعالى : الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ؟ والثانى قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . صدق الله العظيم . ولا مماراة فى أن هذا النص الصريح ، قد بولغ فى تفسيره مبالغة أدت الى تقيض ما قصد منه . فكون الرجال قوامين

على النساء بوجه التفضيل وبما أنفقوا من أموالهم ، وأن
للرجال عليهن درجة ، لا يستنتج منه كل ما ذهب اليه أولئك
الذين فسروا ذلك تفسيراً سلب المرأة كل ما أضفى عليها
الاسلام من الحقوق وما اختصها به من لامتيازات العليا .

فسر ذلك بأن الأسرة التي تتكون من رجل وامرأة
وتوابعها لابد لها من تنظيم القيادة ، وتعيين الخطة ، لأنها
أشبه بدولة صغيرة تتكون منها الدولة الكبيرة ، وانه اذا
لم يوجد في الدولة من يقودها ويسوسها تعددت القيادات
واختلفت الرغبات ، فسادت الفوضى ، وعم الشقاق ، وان
الله قد ميز الرجل بميزات دينية ومادية وعقلية وحيوية
تجعله كفؤاً لهذه القيادة . بذلك يقولون اطلاقاً وبغير
تحديد .

لقد اتخذت قوامه الرجل على المرأة سبيلاً الى الاستبداد
الذي لا حدود له ولا ضوابط ، بالرغم من أن الاسلام
لم يقصد مطلقاً الى هذا ، بل الواقع أنه قصد بقوامه الرجل
على المرأة أن لا تكون مطلقة بل مقيدة بقيود وضوابط
تستتج عقلاً . فهل كل رجل جدير بأن يكون قواماً على كل امرأة
ولو كان فاسقاً قاتلاً أو لصاً سفاحاً ، وكانت هي من الفضليات
العفيفات العارفات بحدود الله ؟ هل الرجل المسرف المقامر
الرذيل خليق بأن يكون قواماً على المرأة اطلاقاً وبغير حد .
اذن تكون قوامه الرجل على المرأة محصورة في حدود

أن يكون رجلا فاصلا كاملا عفيفا تقيا عارفا بواجبه ، تقيا
 طاهر الذيل ، وعلى الجملة أن يكون رجلا مستحقا لأن يكون
 قواما على أسرته وأهل بيته ، والا فان هذه القوامه ولا شك
 تسقط عنه ، وتكون المرأة اذا كانت عفيفة فاضلة أجدر منه
 وأخلق بأن تكون قوامه عليه وعلى أسرته وأولادها وبنيتها ،
 بل وعلى ثروته وشئونه ومعاملاته ، وكثيرا ما رأينا نساء
 قد أصبحن وصيات أو قيمات بأحكام القانون والشرع
 على أزواج لهن أو أولاد ، لأن الاسلام الخفيف لم يضع
 من الأحكام ما هو مطلق من قيود الزمان والمكان وظروف
 الحال . بل أنه حضنا على أن نجتهد وأن نفكر وأن نتطور
 مع الزمان ومع الظروف ، بل انه جعل الناس أحرارا حتى
 في العقيدة من حيث تعلقها بالكفر والايمان : فمن شاء
 فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وان دينا يقدر حرية الارادة
 هذا التقديس ، يبعد عليه أن يجمد ، كما يريد هؤلاء ،
 فيطلق قوامه الرجل على المرأة من كل قيد ويحررها من كل
 الحدود التي قد ندركها بالعقل أو تقرضها علينا ظروف
 الأحوال . ومن من النساء تستكبر بأن يكون القوام عليها
 رجلا فاضلا عارفا بحدود الله والأدب ، ومن منهن تقبل
 أن يكون القوام عليها رجلا ساقط الأدب ، رذلا سفيها ،
 أو قاتلا لصا دنيء الطبع سيء النشأة ، أسفت نزعاته
 واستقوت عليه شهواته واستعبدته نزواته الحيوانية .

ان القول بتنظيم القيادة وتوحيد الخطة في سياسة الأسرة ، لقول له خبيء وخبيئه أن تكون السلطة المطلقة المفردة والارادة التي لا ترد ، للرجل دون المرأة ، بلا نظر الى الملابس التي قد تجعل المرأة في كثير من الأحوال أجدر بأن تكون صاحبة القيادة لا الرجل . خبيئه أن يكون الرجل الحاكم المطلق المستبد وأن تكون المرأة الكائن المستذل السجين في قيود من ارادة الرجل ، وقيود من نزواته واسفافته ، اللهم الا أن يكون رجلا فاضلا يعرف كيف تكون الحدود ، وكيف تكون القيود ، وأن يكون فوق ذلك رجلا عارفا بأن الحياة جهاد وتطور وأن ما صلح لعصر لا يصلح لعصر غيره ، وأن عجلة الزمان تدور .

على أن الواقع أن الرجل والمرأة لا تفصل بينهما من حيث التحلى بالفضائل أو التردى في الرذائل ، تلك الفروق التي تبرر أن يكون الرجل قواما على المرأة اطلاقا وبغير قيد أو حد . ذلك بأن فضائل الأخلاق ليست وقفها على الرجل وحده ، وليست الرذائل وقفها على المرأة وحدها ، ولكن التفسير الذي فسرهُ هؤلاء لقوامة الرجل على المرأة ، قد فرض ، ولكن بغير مرجحات ، ان كل رجل أفضل من أية امرأة ، ولهذا وجب عندهم أن يكون الرجل اطلاقا صاحب القوامة وصاحب القيادة وصاحب التوجيه ، وان الرجل فاضل صالح لكل ذلك ، وأن المرأة اطلاقا لا تصلح لشيء !!!

لكى نسلم لهم بما يريدون ، ينبغي عليهم أن يقيموا
الحجة على أن فضائل القيادة والتوجيه وحسن الرأى ،
لا يختص بهم الا الرجل ، وان المرأة لم تخصصها الطبيعة
بشئ من ذلك . عليهم أن يبرهنوا أن الرجل خلق وحده ،
وأن المرأة خلق آخر حتى يستقيم مذهبهم مع منطق الواقع ،
والا فان الحجة تلزمهم بأن قوامة الرجل على المرأة ينبغي
أن تخضع لشروط قلما تجعل حق القوامة الذى ينشدون
منطبقا مع حاجات الحياة ومع حاجات العيش الطيب .

أما أن نقول ان الرجل قوام على المرأة اطلاقا وبغير قيد ، ففيه
منافاة للعقل ، وفيه معاداة لكل ما أضفى الاسلام الحنيف
على المرأة من الحقوق ، وما حدد لها من منزلة فى الحياة .
ذلك بأن كل ما فيه صفة الاطلاق ، فيه أيضا صفة الاستبداد
والتحكم ، واخضاع ارادة تعتبر ارادة دنيا ، لارادة أخرى
تعتبر ارادة عليا ، فيترتب على ذلك أن تصبح المرأة ذلك
المخلوق القاصر الذى لا رأى له ولا ارادة ولا كيانا مستقلا
فى حياة الأسرة أو الوطن .

وانما قصد بأن الرجل قوام على المرأة أن يكون بينهما
تشارك فى المصالح محدود بحدود العقل والحرية ومراعاة
للواجبات والمسئوليات ، وعلى الجملة ، قصد به أن يكون
أساسا لاقامة حياة تكافلية فى ذلك العالم الصغير الذى
نسماه الأسرة . ولن تقوم حياة تكافلية فى جماعة من
الجماعات الا اذا كانت حرية الارادة أساسها وسنادتها .

ان ملاك الأخلاق الفاضلة الاعتراف بأن غيرك من المخلوقات فيه قدر من الفضائل والاستعداد الطبيعي لفعل الخير ما يبرر أن يكون له قدرا من الحرية العقلية والارادية ، هو حقه الطبيعي في حياة أساسها حرية الارادة . أما أن نطلق قوامة الرجل على المرأة من كل قيد ، ونحررها من كل الحدود ، حدود العقل والأوضاع الاجتماعية ، فانما ذلك يكون الاستبداد بعينه ، بل يكون الاستعباد الذي حضت جميع الأديان على مقاومته والخروج عليه ، بل ان تقاليد الاسلام نفسه ، وهي تقاليد ورثناها تشبعا بروح الاسلام ، قد جعلت الحرية أساسا من أسس الايمان الصحيح ، بل ان الايمان في الاسلام لا يكون ايمانا صحيحا الا اذا اكتملت فيه عوامل الحرية بجميع مجاليها العالية .

— ٤ —

يقولون :

« جعل الاسلام لكل من الرجل والمرأة ميدانا يختص به ، ويجاهد فيه ، فالرجل في الخارج يتعب وينصب ويشقى ويجاهد ، ويجمع ويكتسب لا ليستأثر بما جمع ، بل ليشارك فيه أختا عزيزة عليه ، تجاهد من خلفه من ميدان آخر كريم مستور هو ميدان البيت ، فتبذل هناك كل مافي وسعها من حيلة وفن وتدبير لتهيئة سعادة بيتية حبيبة تطعم شهدها وسلافها الطهور مع زوجها في حياة كريمة » ...

هذه الجمل الخطابية هي غاية ما وصل اليه القائلون بأن المرأة خلقت للبيت من حقائق هذه الحياة الحديثة . لم يدركوا أن الحياة انقلبت موازينها وتبدلت حقائقها ، وأن الاسلام الذى أباح للمرأة أن تبدى رأيها وأن تتجر وأن تتعلم وأن يكون لها ملك تتصرف فيه بمحض ارادتها ، لا تتفق مبادئه هذه مع أسر المرأة فى البيت وأن يكون كل حقها فى الحياة أن تقيم بين جدران أربعة تحصر فى جوانبها الضيقة كل واجباتها فى الحياة . على أن الذين يستمسكون بهذا المذهب لا يدركون عادة أن الحياة الجديدة حياة أساسها اقتصادى صرف ، وأن أثر ذلك فى كيان الجماعة قد جعل الاستقلال فى الحياة صنو القدرة الاقتصادية ، وأن المرأة اذا لم تعمل لتكون مستقلة اقتصاديا ، ارتدت تلك اللعبة التى يتلهى بها الرجل بل عادت ذلك الكائن الخاضع المستكين الذى يحتاج دائما الى معونة الرجل ، مما يتنافى مع روح الاسلام ، بل يتنافى مع الحق الذى هو روح جميع الأديان .

ولعمري بأية شريعة أو قانون يفسح للرجل أن يكون مستقلا فى ميدان الحياة ، ولا يفسح مثل ذلك للمرأة ؟ ولماذا يكون للرجل حق السعى والكسب مما يجعل له اليد العليا فى الحياة على المرأة ، ولا يكون للمرأة نفس هذا الحق ليكون لها من الاستقلال الاقتصادى ما تتحصن به من استبداد الرجل اذا ما ظلت عالة عليه ؟ اللهم أن لا شريعة ولا قانون

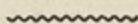
يمنع المرأة من ذلك ، وانما يمنعها من ذلك تقاليد درجنا عليها
ولزمنها غير شاعرين ان زمانها قد فات وانقضى ، متعامين
عن أن حقائق الحياة التى تغمرنا قد عصفت بها عصفاً
وارسلتها أبديداً .

عاشت الجماعات الانسانية فى العصور الأولى مأسورة
ضمن حدود جغرافية . عاشت فى أرجاء تفصل بينها الأنهار
والجبال والبحار وغير ذلك من الموانع الطبيعية . فكانت هذه
أشبه بعوالم صغيرة يتألف منها عالم كبير . ولكنه عالم بالرغم
من كبره واتساعه ، كان مفكك الأوصال ممزق الوحدة ،
على العكس مما نشهد اليوم . فقد اندثرت قوى الزمن
وقوى المكان ، تلك القوى التى احتكمت فى حياة الجماعات
الانسانية الأولى . لقد أصبحت الحياة الانسانية وحدة كاملة ،
وأصبح العالم الذى نعيش فيه بغير حدود طبيعية ، بل ان
حدوده انقلبت حدوداً ليست هى بأكثر من اعتبارات جغرافية .
فالطائرة والموجات الأثيرية والباخرة ، قد أثرت فى قوى الزمن
وقوى المكان وكادت تدثرهما ، وربطت بين مصالح العالم
بتلك الوحدة الاقتصادية التى تحتاج فيها الشعوب الى بذل
كل مجهوداتها لتحفظ بكيانها الاقتصادى قواماً على
استقلالها السياسى . هذه الحالات الجديدة تقتضى انقلاباً
فى حشد قوى الجماعات حشداً من شأنه أن يزوج بجميع أفراد
الأمّة رجالاً ونساءً فى معترك الإنتاج الاقتصادى ، لأن ذلك
أصبح طريق الخلاص فى هذه الدنيا العامرة بصنوف التنافس

الاتجاهى ، والتي أصبحت القدرة الاقتصادية فيها معيارا
للاستقلال السياسى . وهذه الحقائق التى نلمسها ونعانى
آثارها فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، تجعل لزاما علينا أن
نحشد قوانا جميعا ، رجالا ونساء ، وتحملنا قسرا على أن
نخرج المرأة الى ميدان العمل وأن نزوج بها فى مراعى الاقتصاد
والانتاج ، لأن غيرنا من الأمم الطامعة فى خيراتها ، العاملة
على هدم استقلالنا الاقتصادى توصلنا الى اخضاعنا السياسى ،
قد حشدت جميع قواها للهجوم ، فكيف بنا اذا لم نحشد
جميع قوانا للدفاع عن حياتنا وكياننا واستقلالنا ؟ لا شك
فى أن مصيرنا فى هذا المعترك يكون مصير أمة اكتنزت قواها
وعطلتها جريا وراء أوهام تساور بعض الرؤوس ، انتظارا
للخلاص فى الآخرة ، وان كان ثمنه السقوط والاستبعاد
فى هذه الحياة . وما كان الاسلام الا دين القوة والاستعلاء
والحرية والاستقلال السياسى . حضنا على أن نعد لهذا
المركز العالمى ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل ، وقد
أصبحنا بالتهاون والجمود لا حول لنا ولا قوة ، ولا خيل
ولا رباط .

لقد كان للفتيات الروسيات خطر سبق فى انقاذ ستالينجراد
من الغزاة الألمان . حقيقة لا يمارى فيها الا العميان . فقد
قمن بتموين المدينة فى أثناء الليل وتحت جنح الدجى ، وحملن
اليها الذخيرة والميرة ، تحت وابل الرصاص والقنابل ،
ولولاهن لسقط ذلك الحصن الذى حمى روسيا كلها من

السقوط • فهل يظل نساؤنا للبيت في حين أن نساء غيرنا قد
خرجن الى حومة الوغى يتحملن الموت في سبيل الوطن ،
ونطلب من هذه الدنيا أن تعطينا مزيدا من مطلوبات الحياة •
خرج نساء العالم المتمدين الى المتجر والمصنع والحقل ،
ونريد لنسائنا أن يكن قعيدات البيوت ، وأن يظللن الكائنات
المعولة ، وأن يمضين ذليلات حقيرات بعيدات عن الحياة
مقصورات على الطبخ والغسل وحمل القمامة الى خارج
الحجرات والمنازل ، ثم نقول أن ذلك حكم الله !!! انما ذلك
حكم اتنا نحاول أن لا نساير الزمن ونبغى أن نظل كما كان
آباؤنا مأسورين في حلقة من الأفكار البالية ، جاهلين أن العالم
قد اندفع الى الأمام فراسخ وأميالا ، وان الامم تحشد جميع
قواها لتستأثر بالدنيا ، في وقت نتطلع فيه الى الآخرة وحدها ،
وننسى أن هذه الدنيا هي الطريق الى تلك الآخرة ، بل اتنا
نحاول أن تتجاهل اتنا في هذه الدنيا الصاخبة ، دنيا العمل
والجهاد ، دنيا الحشد والاستجماع ، دنيا الاقتصاد والانتاج •



الفصل السابع

أقوال خطابية في تمرد الرجل على وظيفته وتمرد المرأة على وظيفتها - المرأة حرة فعلا - مظاهر حنو على المرأة يراد بها استعبادها - المرأة في الحقل مصدر ثروة وطنية - الاسلام يعتبر المرأة انسانا كاملا بالرغم من ظواهر النصوص - كلام في الفوارق بين الرجل والمرأة - الطلاق لا ينبغي أن يكون من حق الرجل وحده - الطلاق الرجعي معناه التعامل بالمرأة في سوق الغضب والرضا - القول بأن المرأة لا تصلح الا محكومة - كيف يجب أن ننظر في قضية المرأة - النساء ناقصات عقل ودين وانهن خلقن من ضلع أعوج .

- ١ -

يقولون : « ولو أن الرجل تمرد على وظيفته فاستأنث ، واستقر في البيت لتحطمت الرجولة وفسد المجتمع ، وتعطلت الحياة ، وذلت قيمة الانسانية ، وكذلك لو تمردت المرأة على تعاليم ربها ، ونظم مجتمعتها . فهجرت البيت الى الشارع ، وميادين العمل الخارجية ، لفقدت انوثتها ونسيت أمومتها وهدمت بيتها بيدها ، وتعرضت للاختلاط المشين بالرجال » .

هذه العبارات الخطابية لا تغنى عن الحق شيئا . فما كان للرجل أن يستأنث أى يصير أما ومرضعا ، وما كان للمرأة أن تهجر بيتها الى الشارع لمجرد انها تتحرر من قيود التقاليد .

والبيت عند المرأة أقدس منه عند الرجل ، بل ان للبيت
 في نفس المرأة من الحرمة ما ليس له مثيل في نفس الرجل .
 ان المرأة سلطنة البيت بل الملكة غير المتوجة في ذلك الكن
 الأقدس . فكيف تتخيل ، ارضاء لنزعات عجيبة نحاول
 ارضاءها ، ان المرأة اذا تحررت هجرت البيت الى الشارع !!!
 ولماذا نذهب بعيدا فليس نساؤنا غير محررات بل انهن
 أصبحن مالكات لرقابهن منذ أن نهضت مصر نهضتها الأخيرة ،
 فانتزعن الخمار وهتكن الحجاب ، وخرجن من البيوت ،
 لا ليكن في الشوارع متسكعات ، بل ليعدن الى بيوتهن
 عارفات بأخص الواجبات ، مسلمات قاتتات بعيدات عن الغي
 والهوى . من أين اذن ذلك الخيال الذي أملى هذه العبارات
 العجيبة التي قلبت الرجل اثني ، وجعلت من المرأة بنت هوى
 تتسكع في الشوارع والطرق !!! انما جاء ذلك الخيال
 مؤيدا لنزعات التسلط على المرأة بأية سبيل ومن أية ناحية
 وما نما واستشرى وكبر وضخم في تلك الرؤوس الا مجاراة
 لأوهام ما أنزل الله بها من سلطان . فان الفسق والفجور
 والبغى ، تلك المعانى التي لا يفكر واحد من هؤلاء في المرأة
 الا وتكبر في نفسه آثارها ، حتى أصبح بين هذه المعانى والمرأة
 تشاركها ذهنيا عجيبا ، انما تقوم دليلا على أن الذين يذهبون
 ذلك المذهب ، لا يدركون أن الفسق والفجور والبغى ليست
 أشياء وقفقتها الطبيعة على المرأة أو صفات رصدها الطبع
 للأثني ، وانما هي أشياء يشاركها فيها الرجل أيضا . أما أن

الرجل مثال للطهر والعفة ، وتصور المرأة مثالا للبغى
والاسفاف ، فان ذلك من أبعد الأشياء عن العدل الذى يقيم
قواعد المجتمع ويرسى أسس النظام .

— ٢ —

يحنوا هؤلاء على المرأة ، ويصورون أنفسهم فى صورة
المشفقين عليها أن تتعرض للمشكلات والمصاعب التى
يتعرض لها الرجل خلال سبحة الطويل فى خضم الحياة
المتلاطم كما يقولون . ولماذا لا يظهر ذلك الحنو وهذا
الاشفاق على المرأة ، عندما ترضخ لارادة الرجل فتجس
فى البيت ، وتستذل اقتصاديا ، وتمنع عن أن تكون ذاتا
مستقلة بنفسها فى الحياة ؟ أمن الحنو أو العطف أن تحرم
المرأة ثمرة العمل لتظل عالة على الرجل فيستعبدها ويستبد
بها ، بحكم أنها فى حاجة الى سعيه واستجداء عطفه واستدرار
جيبه ؟ أمن الحنو والاشفاق أن تظل المرأة تلك المستجدية
الذليلة المحتاجة الى سعى الرجل ، والحياة من حولها
تدعوها الى العمل ، بل وان الأمة جمعاء تستصرخها أن تبذل
من جهدها العملى والفكرى ما تستكمل به الأمة ذاتيتها
وتقوى اقتصادياتها التى هى السبيل الأوحى الى استقلالها
السياسى ؟

ولماذا نذهب بعيدا . فهل فى مستطاع هؤلاء بخطاياهم
هذه أن يحملوا الفلاحة على أن تقر فى البيت ولا تخرج منه ،

فلا تساعد فى الزرع وفى الحصاد ، ولا تعاون فى رعى الماشية واقامة الأبنية ورفع الطفيليات من الحقول ومقاومة دودة القطن ، وتقاوة الأرز ، الى غير ذلك مما تضطلع به فى عالم الزراعة أساس ثروتنا الأهلية ؟ وهل فى امكانهم أن يصوروا لنا حالة الريف ومقدار ما تفقد هذه الأمة من الملايين المملينة من الجنيهات اذا كفت الفلاحة عن الخروج الى الحقل والمعاونة فى أعمال الزراعة ، واتبعت مذهب هؤلاء فاستقرت فى البيت ولم يرن صوتها الغرد الجميل فى أرجاء الحقول النظرة فى الأصائل والأسفار ؟

والواقع أن الفلاحات أشد اختلاطا بالرجال من نساء المدن . فهن فى الحقول وفى الأسواق وفى القرى وفى البنادر متجولات متاجرات بائعات مشتريات ، عاملات غارسات حاصدات ، فهل سادت بذلك القوضى ، وعم الشقاق كما يقولون ، أم أن القوضى والشقاق بل أن العماء والموت انما هو فى مذهبهم الذى يريدون به أن يصدوا الفلاحة عن القيام بأعباء العمل المنتج فى الحقل ، وعملها فيه لا يقل عن خمسين فى المئة من مجموع العمل الحقلى فى السنة ، فاذا أضفت اليه عملها فى البيت باعتبارها منتجة ، زادت قيمة عملها على ذلك كثيرا .

وكيف يرضى هؤلاء للمرأة المتعلمة أن تظل عالة على الرجل فى حين أن الفلاحة الجاهلة تكاد تكون مستقلة بأعمال

بيتها ، بل وتكاد تكون مستقلة بحياتها • فانها في اليوم الذي ينبذها فيه الرجل ، تشمر عن ساعدها وتخرج الى الحقل عاملة تكسب قوت يومها • ذلك بأن طبيعة حياتها لم تفقدها قوة العضل ولا قوة الارادة •

— ٣ —

لا أريد أن أتكلم في أن المرأة في الاسلام قد اعتبرت نصف انسان اذ هي على النصف مما يستحق الرجل ، ولا تقبل شهادتها في الحدود والقصاص ، وان شهادة المرأة كالنصف لشهادة الرجل • دعنا من أن القانون الجنائي والقانون المدني يأخذ كل منهما الآن بشهادة المرأة على المساواة بشهادة الرجل ، وان شهادة المرأة في حادث جنائي قد يؤدي برجل الى المشنقة أو الى السجن المؤبد • ولكن الاسلام قد أباح في الوصية والوقف أن يعطى الموصى والواقف ما يشاء من ماله الى امرأة أو بنت أو أخت أو عمة أو خالة أو لمن يشاء من النساء بغير حساب ، ومن غير أن يكون عليه في ذلك قصاص من ناحية الدين • فكأن الاسلام بسماحته المعروفة قد اعتبر المرأة انسانا كاملا اذا أراد الرجل أن يعتبرها كذلك ، أى أنه جعل المرأة مساوية للرجل من طريق غير مباشر تاركا الأمر في ذلك لمن يريد أن ينزلها تلك المنزلة • ولكن قلما يلجأ الرجال الى هذه الرخص السامية فيطبقونها • واذا أردت دليلا على ذلك فانظر في وثائق

الأوقاف • فكل وقف صدر عن رجل اما أن تحرم منه البنات
الا قليلا واما أن يعطى لهن نصف ما للذكور عند التسميح •
وأكثر الأوقاف التي صدرت عن نساء تساوى فيها
نصيب الذكر والانثى ، وكان النساء في ذلك أقرب الى العدل
والمرحمة من الرجال ، فانهن لم يقلن على الأقل •

أبناء أبنائنا بنونا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الإبعاد

يقولون : ان الفارق بين المرأة والرجل ، كانت سببا
في أن يفرق بينهما الشرع • فلا يصح امامتها للرجال
ولا محاذاتها لهم في الصلاة ، ولا تصح خطبتها في الجمعة
والعيدين ، ولا يجوز لها الآذان أو الاقامة ، ولا يجب عليها
الجمعة ولا العيدين ولا الجهاد ، ويقولون انه من الفروق بين
المرأة والرجل أن لا تتزوج الا رجلا واحدا بينما يجوز للرجل
أن يتزوج أكثر من واحدة الى أربع اذا قدر على النفقة المعتادة
والعدل المستطاع • وانه لا يصح ايقاع الطلاق منها الا أن
يفوضه الزوج اليها ، ولا تصح منها الرجعة في الطلاق الرجعي •

كل هذه الأشياء ولا شك تزهد فيها المرأة • فهي ولا شك
زاهدة في أن تؤم الرجال • زاهدة في أن تحاذيهم في الصلاة ،
زاهدة في أن تخطب الجمعة والعيدين والآذان والاقامة
وصلاة الجمعة الى غير ذلك • فليهنأ بذلك الرجال • ولكن
كيف تزهد المرأة في أن تكون انسانا ؟ كيف تزهد في أن تكون
شريكة واحدة لشريك واحد ؟ كيف تزهد في أن يكون

زوجها لها لا لأربعة نساء ؟ ولئن كانت الرخصة بالزواج
بأكثر من واحدة الى أربع ، كانت لضرورة فأجازها الشرع ،
فانه قد حوطها بسياج من التحرز جعل القيام بشرائها ضربا
من المحال فقال : فان خفتن أن لا تعدلوا فواحدة ، ولن
تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم • والمعنى
الصريح لهذا القول العلوى ان استطاعة البذل محال ، واذن
يكون الحكم هو التزوج بواحدة •

أما من حيث الطلاق ، فمقتضى النظام الاجتماعى ، يحتم
علينا أن نقيم الاسرة على أساس أثبت من الأساس الذى
يجعل للرجل حق الطلاق غير منازع فيه ، وأن نجعل الطلاق
حقا للطرفين ، على أن يكون بحكم تصدره محكمة خاصة •
والا فلا يقع طلاق مهما كان الأمر • أما الطلاق الرجعى فمعناه
أن الرجل يبيع المرأة فى سوق الغضب ، ويشترىها فى سوق
الرضى • يطلقها اليوم ويردها غدا كأنها السلعة أو السائمة •
وأى درك أحط من ذلك الدرك تنزله المرأة ، فتترك غرضا
ترميه سهام النزق والحقم والجهالة والسفالات •

— ٤ —

يقولون : « المرأة لا تسعد ولا تسعد غيرها الا اذا كانت
محكومة » •

ولكن ما طبيعة ذلك الحكم ، وما هو مداه ، ولمن يكون
الحكم ؟ ذلك ما لم يبين عنه أولئك الذين يريدون أن يعموا

على الحق بخطاياهم • اذا كان المعنى المستفاد من أن المرأة لا تصلح الا اذا كانت محكومة ، أن يكون ذلك بالخضوع للقوانين ، فانها والرجل سواسية من حيث ذلك • فان الرجل لا يسعد نفسه ولا يسعد غيره الا اذا حكمه القانون ، وسيرت خطاه الشرائع • أما أن يحاولوا بذلك القول أن يكون الحكم للرجل بمطلق ارادته الفردية ، وأن تكون المرأة خاضعة لذلك الحكم بلا أى ضابط ، فذلك نظام باد ومضى زمنه ، فان زمن الارادات الفردية أصبح اليوم حديثا يروى •

ينبغي أن ينظر فى قضية المرأة نظرة واسعة شاملة ، حتى يكون الحكم فيها ملائما لحاجات العصر مسايرا لمقتضى الحال • فان اللجوء الى خطابات تقوم على مجرد آراء منقولة أو نصوص أريد بها الاشارة الى حالات عابرة لا تلبث أن تزول عندما تزول بواعثها ، أمر جد خطير • وكذلك لا ينبغي أن يؤخذ بما جرى عليه بعض القدماء من تأويلات كقولهم مثلا ان الاسلام لم يبح للمرأة أن تخرج من بيتها الا لضرورة تاركين تعريف هذه الضرورة لصاحب القوامة عليها وهو الرجل ، فأعطوا الرجل بذلك سلطة لا حد ولا ضابط لها • فله أن يأسرها أسرا طويلا وله أن يقدر الضرورة التى تضطرها الى الخروج من بيتها بمحض هواه • ولا شك فى أن كلمة الضرورة من الأشياء التى يمكن أن يضيق معناها أو يتسع بمحض الارادة ، لا سيما وأن تقدير ذلك متروك الى شخص ذى مصلحة خاصة فى تقدير

معناه • واذن يتراوح ذلك المعنى بين الشدة واللين بحسب الظروف التى تقوم بين من يريد أن ينتفع بالضرورة وبين من يقدر هذه الضرورة • وعلى الجملة فإن كلمة الضرورة لم يقصد بها فى السماح للمرأة بالخروج من البيت الا أن يكون لأحد طرفى الشركة فى الزواج سلطة غير محدودة على حرية الطرف الآخر • على أن ذلك كله لا يمكن أن يكون ذا أثر فى توجيه الحياة فى عصرنا هذا • فإن الضرورات التى تحمل المرأة على الخروج من بيتها فى عصرنا هذا ولا شك غير الضرورات التى كانت تحمل المرأة على مغادرة بيتها فى الأزمان التى قيل فيها ذلك القول • ولكننا الى جانب هذا نذهب الى أن شرط الضرورة فى الاذن للمرأة بالخروج من بيتها لم يقصد به فى الواقع الا أن تستعبد وأن تسلب حريتها • ولكن ذلك لم يصبح ممكنا فى هذا الزمن ، ولا نستطيع الا أن نقرر أن المرأة حرة فى الخروج من بيتها ، وأن أساس الحياة الصالحة أن يبادل الرجل المرأة ثقة بثقة ، فلا يفرض أنها مخلوق مشكوك فيه ، وانه مخلوق مبرأ من كل نقص •

— ٥ —

عمد الرجعيون الى اتخاذ القول بأن النساء ناقصات عقل ودين وانهن قد خلقن من ضلع أعوج ، مبررا لأن تكون المرأة تبعا للرجل • تبعا لارادته وجزءا من متاعه ، وانهما لنقص الدين وصغر العقل وخلقها من ضلع أعوج ، لا ينبغى أن يكون

لها حق الحرية أو حق الحياة الا بقدر ما ييسح لها الرجل من الحرية ومن الحياة الانسانية .

أول شيء لا أستطيع عقلا أن أسلم بأن ذلك القول قد صدر عن النبي صلاة الله عليه وسلامه ، وانها من قبيل ما نقل الينا من الأحاديث التي لا يقبل عقل أنها صدرت عن النبي ، لشدة الفارق بين صغر ما نقل وعظمة المنقول عنه . فهل أعقل مثلا ان النبي قد قال « من أكل فليلعق أصابعه أو يلعقها غيره » ؟ كلا . من المستحيل أن أعتقد أن ذلك القول قد صدر عن النبي ولو صح سنده . ومثله القول بأن النساء ناقصات عقل ودين ، في الوقت الذي تواتر فيه أن كبار الصحابة قد أخذوا عن عائشة ثلثي الدين . وما عائشة الا من النساء . فكيف نوفق بين هذا القول وبين اقبال كبار الصحابة على عائشة يأخذون عنها ثلثي الدين بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام ، مع أنه قد كان بين عائشة والصحابة تلك الوشائج التي نعرفها ، من حيث العلاقة ومن حيث الزمن .

أما ان النساء قد خلقن من ضلع أعوج ، فكلام لا يستقيم مع الواقع . لأن كل الضلوع بها عوج . والقول بأنهن خلقن من ضلع أعوج يوجب وجود ضلوع مستقيمة . وهذا تناقض لا يصدر عن النبي . وكذلك فيه تناف مع حقائق العلم الحديث ، لأن نظرية خلق الأنواع خلقا مستقلا قد أفسحت الطريق لنظرية التطور العضوى ، فلم يصبح لها من الشأن ما يصح أن يحتج به لافي العلم ولا في غير العلم .

أما اذا نظرنا فى الرجل والمرأة ، لنرى أيهما أحق بأن
يوصف بأنه ناقص العقل والدين ، لرأينا أن المرأة أحق من
الرجل بأن توصف بأنها أكمل دينا ، وان لم نستطع القول
بأنها أكمل عقلا ، فاذا كانت وصايا الأديان جميعا قد هدفت
الى أن يستقيم المجتمع ، فالمرأة أكثر مراعاة لوصايا الدين
من الرجل . فاذا أخذت مثلا احصائية الجنايات ، وبخاصة
جنايات القتل ، لما وجدنا فى تلك الاحصائية حادث قتل واحد
ارتكبته امرأة اللهم الا النادر اليسير ، ولوجدنا أن بين
جناية القتل التى يرتكبها رجل وأخرى ترتكبها امرأة ، فارقا
فى طريقة القتل يدل على مقدار ما فى جناية الرجل من وحشية،
وما فى جناية المرأة من أثر التردد وتخفيف الموت على المقتول .
وكذلك نجد فى أكثر الأمر أن القتل الذى ترتكبه امرأة فيه
عنصر من التحريض أو المساعدة مصدره الرجل .

وعلى ذلك ففس السرقه والسطو والتزوير والاعتصاب
وغير ذلك من الرذائل التى ما أرادت وصايا الأديان الا أن
تكف عنها الانسان . فان جميع هذه الوصايا أصبح اتباعها
وقفا على المرأة دون الرجل . فأيهما اذن أكمل دينا : المرأة
أم الرجل ؟

تترك الجواب عن ذلك لمن له عقل يحكمه أو ضمير
يحاسبه .

الفصل الثامن

عصرنا عصر الحضارة الاقتصادية - قوة الحشد أساس
من أسس الحرية والاستقلال السياسي - الاستقلال
الاقتصادي - دعامة الاستقلال السياسي - ينبغي أن تحشد
قوانا الانتاجية اذا أردنا الفوز في معمة التناحر على البقاء -
الدفاع عن حقوق المرأة مسألة تتعلق بعوامل عالمية -
العلم الحديث انجيل الحضارة الحديثة - حرية الفكر أساس
الاصلاح اجتماعيا واعتقاديا - مثال من تاريخ الكنيسة ازاء
حرية الفكر - قضية المرأة قضية عدل وحق وحرية .

أسباب ونتائج

- ١ -

العصر الذى نعيش فيه عصر تقوم حضارته على الاقتصاد .
ومعنى هذا أن أساس الحياة الحرة فيه أصبح اقتصاديا صرفا ،
على العكس مما كان فى العصور الأولى . فان أساس الحياة
اذ ذاك كان قائما على القوة العسكرية . واليوم تقوم القوة
العسكرية على القوة الاقتصادية ، وعليهما تقوم الحياة الحرة .
فالأمة التى تضعف اقتصادياتها تضعف قوتها العسكرية ،
فيصيرها الكلال وتقع فريسة لمطامع الدول الاخرى التى
اكتملت قوتها اقتصاديا وعسكريا .

تقدم بهذا لنقول ان الحياة الاجتماعية انقلبت آينها ،
فلئن قامت الحياة الاجتماعية قديما على قوة العضلات والجرأة
والبطولة المستندة الى السيف والخربة والمزراق ، وكانت
جميعا من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ،
لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع . كما انها الى جانب
المصنع تقوم أساسا على قوة العلم الذى يؤسس المصنع
ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والأمم الحديثة انما
تعتمد فى تشييد ذلك كله على ما نسميه هنا - «قوة الحشد» -
ونقصد به حشد جميع قوى الأمة ثم توزيعها على المرافق
العامة توزيعا يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التى تتطلبها
الظروف أو تدعوا اليها السياسة التى توجه فيها خطى الأمة .

هذا الانقلاب الكبير القائم أساسا على طريق حشد
القوى ، لم تؤمن نحن المصريين بعد بمقدار ماله من أثر
فى تكييف حالات المجتمع ، وما يترتب عليه من تبدل
فى مثاليات الأمة ، وما يصدر عنه من ارتقاء فى أخلاقها . ذلك
بأن حشد القوى الكاملة للأمة يشعرها دائما بأن بين طبقاتها
تكافلا يحتم على كل فرد من الأفراد أن يقوم بالواجب
المفروض عليه لخير المجموع كله .

جرت ألمانيا فى العهد النازى على هذه الطريقة ، كما جرت
عليها إيطاليا فى العهد الفاشى ، وتجري عليها الآن روسيا
فى عصر ما بعد الحرب ، وتنافسها فى ذلك أمم الغرب .
فالأمم قائمة اليوم بحشد جميع قواها لكى تفوز اذا جد

الجد وحزب الأمر فى معمعة التناحر على البقاء • على أن التناحر على البقاء لم يصبح فى عالم الانسان كما كان فى عالم الحيوان تناحر فرد وفرد ، بل أصبح تناحر جمعية وجمعية ، بل تعدى ذلك الى تناحر جماعات من الأمم ازاء جماعات أخرى • وهى صورة من التناحر الحيوى يفوز فيها الذين يكملون بالحشد الصناعى والعلمى والاتاجى ، قوتهم الاقتصادية والمادية •

هذه الحال تتطلب من كل أمة أن توقظ فى أفرادها ، رجالا ونساء ، روح التكافل حتى يشعروا بالمسئوليات الملقاة على عواتقهم ، ويشاركوا ، كل بمقدار استطاعته ، فى الاتاج بأقصى حدود الامكان ، مع الاقتصاد فى النفقة فى حدود ما يتطلب ذلك الاتاج • وما نقصد بالاقتصاد فى النفقة الا نفقة الجهد ونفقة المادة •

ولقد شعرت الأمم بما يحفزهم الى العمل على حشد القوى ، منذ أن بدأ الانقلاب الاتاجى الحديث ، اذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق فى معركة التنافس التجارى ، ثم شعرت بعد قليل أن الفوز فى معركة التنافس التجارى يتطلب منها الفوز فى معركة الدفاع والهجوم والتسود فى ميادين القوة العسكرية • ولقد بلغت هذه الحال قممتها العليا فى الحربين الأخيرتين ، اذ بان جليا أن الأمة التى تكمل حشودها تكون فرصتها فى الفوز أكبر وانتصارها

أضمن • ومن ثمت حتى الآن نرى العالم كله وقد أخذت كل أممه تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز في المعركة المقبلة ، وانها لمعركة واقعة لا محالة •

لقد حشدت ألمانيا وإيطاليا قواهما ، والآن تحشد روسيا قواها ، وتعبىء أمم الغرب جميع مواردها • حشدت ألمانيا وإيطاليا كل القوى التي يمكن أن تستمد في عضلات الرجل والمرأة ، واليوم تحشد روسيا وأمم الغرب كل قواها الحيوية بلا تفريق بين مصادرها • كل هذا لأن الأمم تشعر بأن أي تفريط في حشد هذه القوى سيكون له أثر سيء في فوزها في المعركة المقبلة ، ومن هنا كان الاقتتان في تنظيم الانتاج بسنوات خمس أو سنوات عشر ، ومن هنا كان الاهتمام بدور العلم والمعاهد العالية ، ومن هنا كان البذل في سبيل الاختراع والاستكشاف •

— ٢ —

في عالم مثل هذا العالم الذي وصفنا ، وفي معركة تحشد فيها كل قوى الأمم التي من حولنا ، وفي وسط الجلبة العالية التي تدعو الأمم الى الأخذ بجميع أسباب الانتاج ، يحاول البعض منا ارضاء لنزعات طيبة أو غير طيبة ، ولكنها على أي حال نزعات رجعية ، أن يفككوا قوى الأمة ويردوا نصف الأحياء منا قعيدات في البيوت ، مفضلين حياة الحریم كما فهم في عصر المماليك وغيره من العصور ، على حياة الجهد والعمل

والانتاج ، ويعملون مقتنعين ولكن على أساس خاطيء ، بأن
أمة محمد بخير ، وان لاضرورة تحفزنا الى حشد القوى على
الصورة التى يتبعها غيرنا من الأمم ، كأننا فى عالم غير العالم
الذى تتناحر فيه هذه الأمم ، وكأننا لسنا قاب قوسين أو أدنى
من ميدان المعركة العالمية .

ان الأسباب التى تحملنا على الدفاع عن حقوق المرأة
فى الحرية والعمل والمساواة فى الحقوق المدنية والسياسية ،
انما هى أسباب لا تتعلق بحالنا الاجتماعى وحدها ، بل تتعلق
أيضا بما يجرى فى هذا العالم من أحداث الاجتماع والسياسة .
تلك الأحداث التى تلفنا لها وتسوقنا سوقا نحو الهدف
المخبوء فى صدر المستقبل ، ذلك الهدف الذى ان جهلناه ،
فلسنا نجهل أننا نعيش فى عالم أساس الحياة فيه قوة المصنع
وقوة الاقتصاد ، وعلى الجملة قوة الحشد التى تخرج من
المصنع مصنعا كامل النفع ، وتقيم الاقتصاد على أساس من
القدرة الذاتية للأمة .

نساق فى هذه السبيل رغم ارادتنا وحتف أنوفنا . هذا
إذا أردنا الحياة كريمة ، أما إذا أردنا الموت ، فمن ذا الذى
سوف يأسف لأن أمة تدعى الأمة المصرية قد ارتد افرادها
عبدا لغيرها من الأمم ؟

هذه حقائق واقعة لا ينبغى أن يعمى عليها بمثل الخطايات
التي يسوقها فئة ممن لا يدركون من أحوال هذا العالم
الا قدر ما تشغل أحذيتهم من كرة الأرض .

ان السبب الأعظم في جميع ذلك ، بل وفي جميع ما نشعر به من قلق اجتماعي ونقص في معاهدنا وأنظمتنا ، اننا لم نؤمن بعد بالعلم . وزدنا الى عدم ايماننا بالعلم كارثة أخرى أنكى وأدهى ، هي اننا لم نحرر عقولنا . فعلقنا مصالحنا المادية على ارتجالات رجال السياسة ورجال الأحزاب ، وانقنا أن نواجه الحقائق وأن نواقع الأمور كما هي كائنة ، خضوعا لتقاليد ورثناها ، وما نزال نستمسك بها بعد أن أبلاها الزمن وأبليت الأحداث ، وبعد أن خلفها تطور الانسان أخلاقا بالية ، وأشتاتا متنافرة .

لقد نظرنا في مشكلة المرأة كما نظرنا في غيرها من المشاكل محكمين عواطفنا منساقين بمشاعرنا خاضعين لتقاليد الأزمان الماضية ، تلك التقاليد التي ان طبعنا عليها أولادنا ونساءنا بؤنا بهم الى ظلمة الجهالة وارتددنا بهم الى أساطير الأولين . فكم من معارك قلمية طار غبارها وكم من مواقع فكرية خيضت غمراتها ، وكم أنفقنا من الزمن ومن الجهد ، في سبيل اقرار أمور هي من البيان والوضوح بحيث لا تحتاج الى دليل يقام أو برهان يدلى به . ولقد أذكر أن فئة أهل الرجعية قد كابت ومارت ونادت بالويل والثبور وعظائم الأمور ، عندما انشئت الجامعة وأريد أن يكون التعليم فيها مختلطا بين الفتيان والفتيات ، وكانت حجتهم الكبرى أن هذا الاختلاط

مفسد للخلق داع الى الفسق والبغى ، ذلك فى حين أن الفتى
والفتاة يلتقيان فى الشارع وفى الترام وفى قطار سكة الحديد
وفى المتجر ، وفى الشارع والحديقة والمطعم والمسهر والمسرح
والسينما ، كأنما التقاء الفتى بالفتاة فى حرم الجامعة وحده
هو الذى سوف يسقط الأخلاق ويحل رابطة الفضيلة •
ولكنها التقاليد ، تقاليد أن المرأة نصف انسان ، وانها مباءة
الرذائل الخلقية ومستكن الفسق والفجور ، هى التى تملئ
على بعض العقليات ما تملئ من تلك المتناقضات الشاذة العجيبة
تقاليد أن الرجل وحده هو الكائن ذو الفضيلة فى هذا الوجود ،
وان المرأة هى الكائن ذو الرذيلة • تقاليد الحريم وما الى
الحريم من ترهات العقيدة والجمود ، تلك الترهات التى
كانت السبب الأكبر فى أن تتخلف عن ركب الحضارة ، كما
كانت السبب فى أن نستذل ونستعبد • تتوالى علينا الخطوب
والكوارث ويتوارثنا الغزاة والفاثون ، ونحن وقوف
نشهد قلب الدول وتوالى الاحداث ، وأفواها مفعورة
يسيل منها لعاب البله والبلادة والحمق •

فاذا ما أخذت عضلاتنا تكتمل ، وقوتنا تنهيا ، واذا
ما أخذنا نلبس ثوب القوة والعافية ، واذا ما أخذنا نضرب
فى سبيل الرجولة والحرية والديمقراطية ، رفعت التقاليد
رأسها لتقول لنا الى الوراء أيها التقدميون !!! وليتهم
يذكرون كلمة « التقدم » أو كلمة « الارتقاء » ! وانما هم
ينعتون كل مصلح تحررت أفكاره وأدرك سير الزمن ، بأنه

من المنافقين ، ان لم يقولون أنه مرتد أثيم ، متخذين في ذلك
أسلحة هم أنفسهم يعلمون أنها أسلحة قليلة لا تقطع
في محز الأشياء •

— ٤ —

ينبغي لنا اذا ما أردنا أن نضرب بسهم في هذه الحياة
الجديدة أن نتحرر • نتحرر من التقاليد ومن الأفكار
العتيقة التي أصابها الانحلال والفساد • نتحرر من الآثار
التي ورثناها عن أزمان خالية ، تلك التي ان صلحت لزمن
فقد مضى زمانها ، وان أرضت في العصور الخوالي نفوسا
وأرضت مشاعر ونزعات ، فقد ماتت تلك النفوس والمشاعر
والنزعات ، وتبدلنا منها نفوسا جديدة ونزعات ومشاعر
تلائم روح العصر الذي نعيش فيه ، وتتفق وسير الحضارة
التي أخذت بخناقنا بل وبخناق العالم أجمع ، تلك الحضارة
التي نحاول أن ننفلت من أقطارها زورا وتديسا على الحق
وعلى الواقع •

على أن الصيحة كلما علت بتحرير الفكر ، علت الى
جانبا صيحة بتقييده • وفي هذه المسألة بالذات لم تتعظ
بما عالج غيرنا من الأمم في مثل ذلك • فان التقاليد اللاهوتية
التي عانت أوروبا من آثارها ما عانت ، والآراء والعقائد
الفائلة التي أخضعت العقل والفكر لأثرها أكثر من عشر
قرون طوال في العصور المظلمة وفي العصور الوسطى ،

وردحا طويلا من العصر الحديث ، قد شنت على الفكر الحر حربا عوانا طويلة الأمد ، استعملت فيها أسلحة من أمضى ما يتسلح به ذوو السلطة الذين حاولوا أن يحافظوا على سلطانهم ، لا لصالح الجماعة الانسانية ، وانما لمجرد التسلط على الناس والاحتكام في اراداتهم وفي حرياتهم . هذه التقاليد التي استمدت سلطانها من الكنيسة التي استمدت سلطانها من الله ، ما دخلت معركة من معارك الفكر ولا خاضت وقعة من وقعات العقل ، الا انهزمت فيها هزيمة منكرة ارتدت فيها على أعقابها محاولة التوفيق تأويلا أو تحويرا بين حقائق العلم والاجتماع وبين ما استمسكت به من آراء وأفكار ونقول ومسموعات ، بعد أن قاومت العلوم العملية والنظرية ، وحاولت أن تبلور المجتمع وتمنع عليه التطور والارتقاء ، بل أرادت أن تعقد المجتمع على صورة بلورات جامدة ، تمثل كل بلورة منها ناحية من نواحي الحياة . ولكن كل هذه الهزائم الكبيرة التي انتابت التقاليد اللاهوتية ، لم تنتج الا خيرا . خيرا للمجتمع وخيرا للكنيسة . فضربت الجامعات الاوربية في مدارج التقدم والفلاح ، وأقامت الكنيسة قواعدها على أسس جديدة توافق مقتضى الحالات التي جددت في الحياة ، فقام ضرب من التكافؤ بين الفكر والمعتقد . ومع هذا الانقلاب البعيد الأثر الرائع الصورة ، لا تزال الكنيسة قائمة ثابتة ثبات الرواسي فلم تتزحزح ولم تمد بها الأرض ، وتبدل الناس من الفضائل

النظرية بفضائل عملية صرفة ، وتحورت الأخلاق بحيث أصبحت أكثر مواءمة لما تتطلب حياة الناس من حرية .

ولم يكن انطلاق الفكر من أسر التقاليد اللاهوتية بالأمر المتعمل المقتعل افتعالا . بل انه كان ولا ريبه استجابة لمقتضى تطورات اختمرت في العقول والنفوس ، فكان من المحتوم أن تخرج الى حيز العمل وكان لزاما أن تسجل آثارها في جبين هذا العصر .

فاذا دافعنا عن قضية المرأة فانما ندافع وملؤنا اليقين الثابت في ذلك . انما ندافع عن قضية كملت مقدماتها ولم يبق الا أن تظهر نتائجها في عالم العمل والتطبيق . قضية أقامها الفكر الحر وحكم فيها العقل ، وتجمعت في هذا الزمن جميع عناصرها التطورية . قضية فيها من العدل والحق ما يجعلها جديرة بأن تكون موضع عناية الأحرار في كل زمان ومكان .

القاهرة في ١٧ من يونية — ١٩٤٩

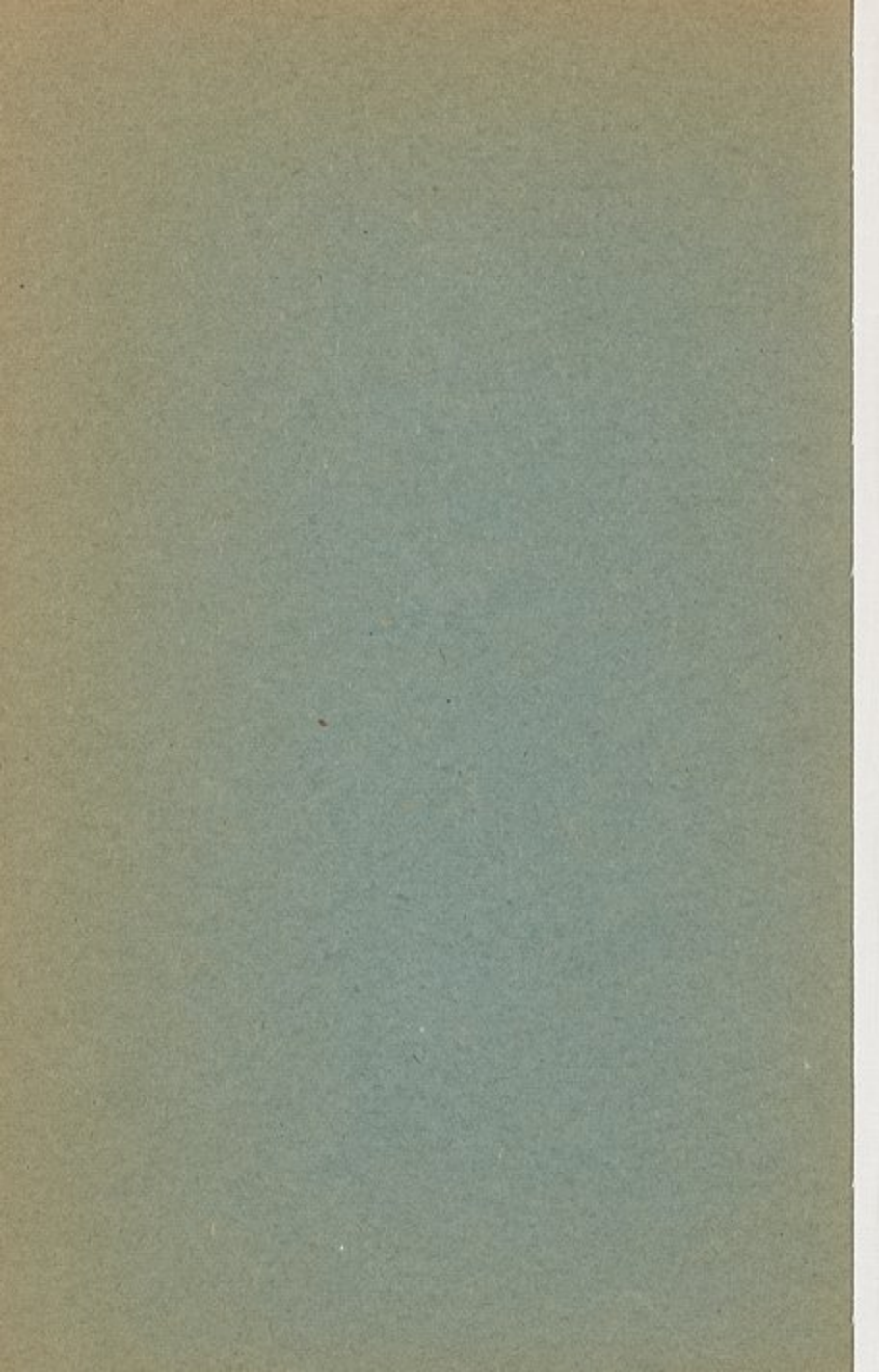
فهرس

صفحة

القسم الأول : تطور مشكلة المرأة في العالم الغربي . . .	١
الفصل الأول	٣
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٦٢
القسم الثاني : حقائق واضحة في تطورنا الاجتماعي . . .	٩٣
الفصل الأول	٩٥
الفصل الثاني	١١٥
الفصل الثالث	١٣٥
الفصل الرابع	١٤٧
الفصل الخامس	١٥٩
الفصل السادس	١٦٧
الفصل السابع	١٨٢
الفصل الثامن	١٩٣

تنبیه

وقعت أخطاء في بعض صفحات الكتاب ؛ ونحن مع اعتذارنا
عنها للقارىء ، نود أن نقول أنها مما يدرك لأول وهلة ، فضلا عن
أنها مما لا يغير من المعنى المستفاد من سياق العبارات .





١٩٤٩





Princeton University Library



32101 085676862

P